هنيدة غانم*

الحزب الشيوعي في إسرائيل بين القومية والدولة

تتناول هذه الدراسة ما تصفه بـ "التناقض" في الموقف لدى الحزب الشيوعي في إسرائيل إزاء التطورات التي عاشتها فلسطين خلال أعوام ما قبل النكبة ثم ما بعدها، وخصوصاً أن المسألة القومية بالنسبة إلى الحزب كانت متناقضة ومتوترة بسبب بنيته الأيديولوجية، ومشكلة الأصلاني والاستعماري، والقومي والطبقي، والوطني والخارجي، وهي أمور تسببت، في فترات، بانقسامات واستقطابات وانشقاقات، على أساس قومي (يهودي وعربي).

وهذا التناقض، وفق الكاتبة، يظهر جلياً في مواقف مثقّفي الحزب، فمثلاً، بينما يصف توفيق زيّاد في إحدى قصائده الصهيونيين بالمعتدين الذي سيذوبون "مثلما الثلج يذوب"، يتغنى مئير فيلنر بمساهمة أعضاء الحزب في الحرب إلى جانب "جيش الدفاع الإسرائيلي"، وبمساهمته (الحزب) في الترويج في أوروبا الشرقية لإسرائيل، وفي جلب المهاجرين اليهود من أوروبا.

وطني مهما نسوا
مرّ عليه
ألف فاتح
ثم ذابوا... مثلما الثلج يذوب

توفيق زيّاد[1]

لقد ضحّى رفاقنا اليهود بحياتهم في صفوف "جيش الدفاع الإسرائيلي"، وسقط رفاق عرب وهم يقاتلون قتالاً سريّاً في عمق العدو. وقد استجلب حزبنا مساعدة مصيرية متنوعة من أوروبا الشرقية، خلال فترة الحصار على القدس، وخلال أيام غوش عتسيون وياد مردخاي، كما ساعَدْنا على الهجرة اليهودية المقاتلة، وكنا عوناً لـ "جيش الدفاع الإسرائيلي".

مئير فيلنر[2]

* باحثة في علم الاجتماع السياسي، والمديرة العامة للمركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية/مدار.

مقدمة

تُظهر القراءة التاريخية السريعة لتطور علاقة الحزب الشيوعي[٣] في فلسطين بالمسألة القومية الفلسطينية ـ سواء قبل النكبة أو بعدها ـ أن تاريخ الحزب حافل بالتناقضات والتوترات، الأمر الذي يعني أن علاقة الحزب بالمسألة القومية ـ وخصوصاً في الأعوام الأولى لإقامة الدولة اليهودية ـ لا يمكن أن يتم تصنيفها وفق مقولات تقويمية جاهزة، كالقول بوجود دور فاعل وعلاقة عضوية إيجابية بين الحزب والمسألة القومية، أو على العكس، والقول بوجود علاقة سلبية اغترابية، إن لم نقل متنكرة ومناوئة للقضية القومية الفلسطينية واستحقاقاتها السياسية. فعلى سبيل المثال، كان الحزب في خمسينيات وستينيات القرن الماضي، الدفيئة والحاضنة التي جرى في ظلها إنتاج وبلورة خطاب "المقاومة" الذي يمجّد الوطن ويحرّض على الصمود والبقاء، وقد صاغ عبر مفرداته هوية قومية واضحة المعالم لـ "أنا" جمعي أصلاني في مقابل محتل صهيوني عابر، وكان مثقفوه من الشعراء في طليعة مَن أعادوا إنتاج الهوية الفلسطينية بعد النكبة، وصاغوا مفرداتها ورموزها الأساسية المجدولة بلغة الأرض والصمود والنضال والمقاومة، في مقابل الآخر بصفته محتلاً ومستعمراً ومارقاً سيذوب ـ "مثلما الثلج يذوب" بتعبير توفيق زيّاد ـ كما عشرات الغزاة من قبله، وذلك ما تجلى بوضوح في كتابات محمود درويش، وسميح القاسم، وسالم جبران، وغيرهم ممّن سمّاهم غسان كنفاني "شعراء المقاومة". كانت أهمية دور المثقف الشاعر في الحزب الشيوعي تتمثل في دوره الطليعي على مستوى وطني فلسطيني يتعدى دوره المحلي في الداخل، إذ تحول شعره إلى مركّب أساسي مشكّل للـهوية الفلسطينية العامة، ولُحّنت قصائده وتحولت إلى جزء من أهازيج الثورة الفلسطينية التي تعبّر عن "روح الشعب" (Ethos) الفلسطيني، ويتضامن معها اللاجئ والفدائي، مثلما يتضامن معها ابن الناصرة وغزة.

لكن دور الحزب لم يكن أحادي الوجهة فحسب، بل حمل أيضاً أنماطاً وممارسات مخالفة، وأحياناً متناقضة مع دور المثقف الوطني الطليعي. فقد وقّع الحزب الشيوعي، ممثلاً في مئير فيلنر، وثيقة الاستقلال التي ورد فيها أن الموقّعين "هم ممثلو الييشوف اليهودي والحركة الصهيونية"، والتي تمّ فيها أيضاً تأكيد الأهداف الصهيونية المتمثلة في إقامة "الدولة اليهودية في أرض إسرائيل، وإعادة هذا الحق إلى الحق التاريخي لليهود في فلسطين، وفتح الأبواب أمام الهجرة اليهودية وجمع الشتات."[٤] بعد ذلك، وافق الحزب على الهجرة اليهودية بين سنتَي ١٩٤٨ و١٩٥٠، واعتبرها حاجة وجودية للدولة، وطالب في سنة ١٩٤٩، وعلى لسان العديد من قياداته، بتجنيد العرب، ثم وافق على "قانون العودة" الإسرائيلي لسنة ١٩٥٤ (للمزيد انظر جورج كرزم ١٩٩٣؛ سعدي ٢٠١٠). ولم يتعلق الأمر بموقف الشيوعيين اليهود فحسب، كما يمكن أن يشير البعض، بل إن عصبة التحرر التي كان جل أعضائها من العرب، عملت قبل ذلك، وتحديداً في تموز/يوليو ١٩٤٨، عندما كانت المعارك في أوجها، على توزيع مناشير تدعو إلى انسحاب الجيوش العربية من فلسطين، وجاء في أحدها: "يا جنود مصر والأقطار الشقيقة عودوا إلى أوطانكم، ووجّهوا بنادقكم إلى صدور المستعمرين وأذنابهم." ووزّعت العصبة لاحقاً المناشير التي تدعو إلى مقاومة الوجود العسكري للجيوش العربية في الجليل، واعتبار هذه الجيوش أداة للرجعية العربية (سعدي ٢٠١٠)، وكانت (العصبة) أيضاً في طليعة مَن سهّل التعاون بين ممثلي الحكم العسكري والعرب في المناطق التي احتلتها عصابات "الهاغاناه"، حتى تلك المعدّة للدولة العربية وفق خطة التقسيم، كما سأبيّن لاحقاً.

إذاً، كيف يمكن أن نفهم تلك المواقف المتناقضة للشيوعيين في فلسطين؟ هل يشير ذلك إلى ازدواجية مواقف الحزب فيما يتعلق

بالمسألة القومية، أم إن هذه المواقف هي تعبير عن مراحل تطور متنوعة لموقف الحزب تبعاً لتغيرات تاريخية وسياسية، أم إنها تناقضات ترتبط بالتوترات والتباينات الداخلية في الحزب وتركيبته؟ وإذا كان الأمر كذلك، وهو ما يفترضه هذا البحث، فهل يمكن القول أصلاً بوجود موقف ثابت للحزب من المسألة القومية، أو إن الموجود هو مجموعة من المواقف المتغيرة تبعاً للسياقات التاريخية وصراعات القوة التي تحيطها من جهة، وحقل الإنتاج الذي تتموقع فيه من جهة ثانية، الأمر الذي يعني وجود تمايز بين المواقف التي تشي بها الكتابات الأدبية، وتلك التي تتشكل في الحقل السياسي الرسمي؟

للإجابة عن تلك الأسئلة، ومن أجل توضيح علاقة الحزب بالمسألة القومية، اخترتُ التركيز على فترة مميزة ومؤسِّسة في تاريخ العمل الشيوعي في فلسطين، وهي الفترة الممتدة منذ الانشقاق الأول وإقامة عصبة التحرر في سنة ١٩٤٣، حتى الانشقاق الثاني بين "راكح" و"ماكي" في سنة ١٩٦٥. وقد اخترت هذه المرحلة كونها تشكل مرحلة حاسمة في تطور الحزب، وحقبة تكثفت فيها التوترات داخله بشأن التعامل مع المسألة القومية في فلسطين، كما أنها تتيح تقصّي أثر العوامل الخارجية في صيرورة الحزب ومواقفه، ولا سيما أنه عاش خلالها مرحلة الارتباط الحزبي مع "الكومنترن"،[٥] كما عاش مرحلة التحرر منه، ومرحلة النضال من أجل الدولة العلمانية الفلسطينية ورفض التقسيم، ومرحلة التنديد برفض التقسيم والتحريض لقبوله، ومرحلة ما قبل النكبة وما بعدها، وواكب خلال ذلك أعوام التناغم مع الدولة، وكذلك الصراع والمواجهة معها، عندما دعم، بداية، إقامة الدولة الإسرائيلية وتماهى معها، ثم سلّط سهام نقده ضدها.

تفترض هذه الدراسة أن علاقة الحزب بالمسألة القومية متناقضة ومتوترة، وذلك بسبب ارتباطها الوثيق بمجموعة من الصدوع والتوترات البنيوية المشكِّلة للحزب، وأهمها التوتر بين الأصلاني والاستعماري، وبين القومي والطبقي، وبين الوطني والخارجي.

وتتجلى العلاقة المتوترة للحزب بالمسألة القومية في وجود خطابات وممارسات متناقضة حيناً، ومتوترة أحياناً أُخرى فيما يرتبط بالعلاقة بالمسألة القومية الفلسطينية، وبفكرة الدولة اليهودية، وبقرار التقسيم (القرار رقم ١٨١). كما تتجلى هذه التناقضات في خطاب الحزب السياسي فيما يتعلق بمسألة المواطنة في الدولة الإسرائيلية، لدى مقارنته بخطاب مثقفيه في موضوعات الأرض والوطن والمكان. وفي هذا السياق، يمكن أن نشير إلى خطابَين أساسيين متوترين يعبّران عن الخطاب المتمايز للحزب مع المسألة القومية، تبعاً للسياق التاريخي والعوامل المتغيرة التي تشكَّل في ظلها: الأول سياسي/مدني/دولاني ساد في الأعوام الأولى لإقامة الدولة، وتموقع في حقلها السياسي بصفته جزءاً منها، إذ ارتكز على مفاهيم الطبقية والأممية والمواطنة والمساواة والعدالة الاقتصادية، وتميّز في بداياته بالتماهي مع الدولة وسياساتها، وجاء في الفترة التي ساد الاعتقاد أن إسرائيل من الممكن أن تكون جزءاً من "قوى التقدم" التي تقف في صف الاتحاد السوفياتي، الأمر الذي بدأ يتغير مع وضوح الخيار الإسرائيلي بالانحياز إلى المعسكر "الإمبريالي"، بلغة الحزب الشيوعي، وهو التحول الذي سيشكل عملياً لحظة فارقة في تاريخ الحزب، وكذلك بتحوّله من حالة التماهي إلى الاغتراب، ثم المعارضة الراديكالية للسياسة الإسرائيلية وخياراتها "الإمبريالية". حالة الاغتراب تلك تحولت إلى حاضنة ملائمة لنمو خطاب ثقافي قومي يرتكز على مفاهيم الوطن والأرض والصمود والتحرر، ويتموقع من حيث ثيماته وطروحاته ليس فقط خارج حدود السياق الإسرائيلي، بل في مواجهته أيضاً، وهو متناسق ومتمازج إلى حد بعيد مع الخطاب الثقافي الوطني الفلسطيني العام ومتكامل معه. ومن

المهم هنا الإشارة إلى أن ظهور الخطاب القومي لم يؤدّ إلى غياب الخطاب المدني، وإنما هيمن عليه إلى حد بعيد، حتى تحول إلى "الموروث" الأساسي للحزب في علاقته مع جمهوره العربي. كما تجدر الإشارة إلى أن التمييز هنا هو بين شكلين من الخطاب، وليس بين وكيلين له، وذلك بسبب التمازج الكبير بين المثقف والسياسي، ووجود تماهٍ كبير بين الاثنين، الأمر الذي ينطبق على إميل حبيبي، وتوفيق زيّاد، وإميل توما، وسالم جبران، ومحمود درويش، وسميح القاسم، حتى إن طغى الثقافي في مراحل لاحقة على السياسي أو العكس.

I ـ المحددات البنيوية الداخلية

أ ـ تناقض الأصلاني والاستعماري

يشكل التناقض بين الأصلاني والاستعماري إشكالية بنيوية مؤسِّسة للحزب الشيوعي الفلسطيني أولاً، والإسرائيلي لاحقاً، وقد تركت أثرها في سيرورته التاريخية، وعلاقته بالمسألة القومية. فعلى عكس باقي الأحزاب العربية التي تأسست في ظل الانتداب البريطاني، وكانت نتاجاً عضوياً للمجتمع الفلسطيني وديناميّاته الاجتماعية الداخلية، تأسس الحزب الشيوعي على يد مجموعة من المهاجرين الجدد الذين قدموا إلى فلسطين ضمن موجات المهاجرين من اليهود الأوروبيين، ولم يلتحق الفلسطينيون في صفوفه إلاّ لاحقاً. وقد أنتج هذا الوضع واقعاً إشكالياً ومتناقضاً، إذ إن المهاجرين اليهود، وبغضّ النظر عن مواقفهم الراديكالية، كانوا بمجرد هجرتهم إلى فلسطين يتحولون عملياً إلى شركاء في المشروع الاستعماري الصهيوني الذي وضع مسألة الهجرة إلى فلسطين على رأس أولوياته وممارسته، على اعتبار أن الاستعمار الاستيطاني يتميز من ممارسات القوة الأُخرى، كالاحتلال والإمبريالية والغزو، بأن تحقيقه لا يتم إلاّ من خلال ممارسة الهجرة الاستيطانية التي تنفَّذ عبر عملية انتقال مجموعات سكانية كبيرة إلى أماكن جديدة، وفرضها سيادتها على تلك المناطق (Wolfe 1999, 2006)، والاستيطان فيها بهدف البقاء الدائم وليس العابر (Wolfe 1999, 2006; Veracini 2010; Sayegh 2012)، الأمر الذي يعني أن فعل الهجرة الاستيطانية هو الأساس المميز والناظم للمشروع الاستعماري، والذي لا ينتفي أو يتغير بفعل الممارسة السياسية المتمايزة لفئة المستوطنين.

تاريخياً، تأسس الحزب الشيوعي في فلسطين في سنة ١٩١٩ على يد مجموعة من الأعضاء اليهود الذين انفصلوا عن حزب العمل الاشتراكي اليهودي (الذي كان مرتبطاً، بدوره، بالاتحاد العمالي اليهودي "بوعالي تسيون")، ولم يرغبوا في الانضمام إلى اتحاد العمل "أحدوت هعافودا ـ الذي تشكل بدوره من تحالف بوعالي تسيون بقيادة بن ـ غوريون وشخصيات غير حزبية اشتراكية بقيادة برل كتسنلسون." وكان الحزب، بتشكيلته الأولى، يدور عملياً في فلك الصهيونية الاشتراكية، وشُكل بداية بصفته "حزب عمال اشتراكياً عبرياً"، واشترك في لجنة تأسيس "الهستدروت" تحت اسم "حزب عمال صهيون اليساريين". وكما يشير الباحث موسى البديري، فإن الحزب في بداياته كان يسعى لأن "يوفق بين التمسك بالصهيونية وعضوية الكومنترن، بينما أراد الكومنترن من جانبه أن يتحول الحزب إلى منظمة محلية تمثل سكان البلد الأصليين" (البديري ٢٠١٢، ص ٧٠). وانسلخ الحزب رسمياً عن الصهيونية في سنة ١٩٢٣، بعد أن اشتُرط عليه كي ينضم إلى الشيوعية العالمية (الكومنترن)، بتبنّي سياسة التعريب، وتغيير اسمه، وقطع علاقته بالصهيونية الاشتراكية (الشريف ١٩٨٠، ص ٨٨ – ٩٧، ١٥٣ – ١٥٩). وفي التاسع من تموز/يوليو ١٩٢٣، أُعلن رسمياً تشكيل "الحزب الشيوعي الفلسطيني"، وذلك بعد أن أعلنت قيادته موافقتها

على شروط الانتساب إلى منظمة "الكومنترن" العالمية، قبل أن ينضم الحزب إليها فعلياً في سنة ١٩٢٤. وتم لاحقاً تبنّي سياسة التعريب رسمياً في مؤتمر الحزب الشيوعي السابع الذي عُقد في سنة ١٩٣٠، وقد تطرق بولس فرح في مذكراته التي وردت في كتابه "من العثمانية إلى الدولة العبرية"، إلى سياسة التعريب التي اتُّبعت، وفق ما ذكر، في إثر "إلحاح الكومنترن بإفساح المجال أمام الرفاق العرب للقيام بدور أكثر أهمية من دورهم قبل التعريب." وجاء في شهادته ما يلي: "مقررات المؤتمر (السابع) وصلتنا وشرحها لنا الرفاق اليهود، وجاء معهم رفيق عربي أمّي، وأظنه كان إشارة منهم إلى التعريب، يعرف اللغة اليديشية أكثر من العربية، ويقلد اليهود بلباسهم وطريقة معيشتهم، وحتى في لثغة الغنج المحببة إلى النساء العبريات" (فرح ١٩٨٥، ص ٧١). وهذه الشهادة تشي من جهة، بالتوتر القومي الذي كان قائماً بين أعضاء الحزب، لكنها من جهة أُخرى، تشي أيضاً بمحاولات الأعضاء اليهود تمرير تعريب شكلي للحزب (الحواري ٢٠١٤). تبعاً لذلك، يمضي فرح بالحديث عن الحضور الطاغي لصدع الاستعمار/القومي في الحزب، وتأثيره في سيرورته بعد تبنّي التعريب، قائلاً: "كان من المفروض على الحزب الشيوعي الفلسطيني، عندما تبنّى سياسة التعريب، ألاّ يقوم بتسليم زمام القيادة إلى الرفاق العرب فحسب؛ بل أن ينتهج سياسة تلبّي مطالب الحركة الوطنية، وبالتالي الاعتراف الضمني بأن الثقل الثوري المعادي للاستعمار هو في جانب الحركة الوطنية." لكن هذه السياسة كانت تتعثر برفض أقسام من الرفاق اليهود قبول هذا النهج، ولذلك لم يتحقق لها النجاح الكامل. "الكوادر اليهودية لم تكن مفهومة قبل أن تكون مقبولة من الشعب العربي، لا لأنها يهودية فحسب، بل لأنها كانت تنتمي قومياً وشعبياً إلى أعداء الشعب العربي؛ إلى الكولونيالية الصهيونية لأنها جزء منها... إذا كان الشيوعيون اليهود مخلصين في شيوعيتهم، فلماذا جاؤوا إلى البلاد؟" (فرح ١٩٨٥، ص ٨٠).

لكن في الوقت الذي كانت الأجواء هادئة نسبياً وغير متفجرة، كان الصدع القومي ـ استعماري قابلاً لأن يُتعامل معه في الحزب، ثم سرعان ما يتحول إلى عامل حاسم في تحديد خيارات الأعضاء قومياً في الأحداث المفصلية، وحين تنفجر مواجهات على أساس قومي. وبرز ذلك بشكل واضح، مثلاً، في "انحياز" أعضاء الحزب اليهود الذين هيمنوا عليه إلى جانب "اليشوف" في أحداث "ثورة البراق" التي اندلعت في سنة ١٩٢٩ (كرزم ١٩٩٣، ص ٧؛ سليمان بشير ١٩٧٧، ص ٢٧٥). ففي هذا السياق، كتب برغر (جوزيف برزيلاي) الذي أصبح سكرتير الحزب الموقت بعد هذه الأحداث: "قبل نهاية ذلك اليوم الذي بدأت فيه حوادث ١٩٢٩، تمكنّا من إصدار الأوامر إلى رفاقنا: 'بسبب وجود خطر المذابح، فإن من واجب أعضاء الحزب الانضمام إلى الهاغاناه في الأحياء التي هي عرضة للخطر'"، كما إن بعض الباحثين يقول إن أعضاء الحزب قاموا بحراسة الأحياء اليهودية في تلك الليلة، وإنه في ساعة متأخرة من الليل ذهب بعض الرفاق إلى يتسحاق بن تسفي الذي قاد عملية الدفاع، وأخبروه أن أعضاء الحزب يريدون الاشتراك في الدفاع عن الأحياء اليهودية، ووضعوا تحت تصرفه "مخزن سلاح" الحزب (كرزم ١٩٩٣، ص ٧؛ بشير ١٩٧٧، ص ٢٧٥). وأدى هذا الانحياز إلى اتهام الكومنترن للحزب بالتقاعس، فقام في إثر ذلك بالتشديد على ضرورة تعريب قيادة الحزب وهو ما تم فعلاً. ففي مؤتمر الحزب السابع الذي عُقد في سنة ١٩٣٠، اتُّخذ قرار بتعيين سكرتير عربي للحزب، ونُفذ الأمر في سنة ١٩٣٤ بتعيين رضوان الحلو ليكون أول سكرتير عربي للحزب (كرزم ١٩٩٣، ص ٧؛ بشير ١٩٧٧، ص ٢٧٦).

بالتوازي مع خطوات التعريب، كان الحزب يقترب، أكثر فأكثر، من "النضال الوطني الفلسطيني"، ومن أبرز الشواهد على ذلك دعمه

ثورة ١٩٣٦ التي اعتبرها نضالاً مشروعاً. ففي بيان أصدره في ١٠ حزيران/يونيو ١٩٣٦، أعلن أن "الاحتلال البريطاني ـ الصهيوني بات يتطلب مقاومة سريعة وفعّالة، وإلاّ فإن الشعب العربي، في حال استمرار سياسة النهب الصهيونية، سيفقد بلاده فلسطين إلى الأبد" (كرزم ١٩٩٣، ص ٨). لكن هذه المواقف لم تكن محل ترحيب من عدد من القيادات اليهودية في الحزب، حتى وصل التمايز إلى أوجه بين المستوطنين اليهود وبين الفلسطينيين في سنة ١٩٤٢، وأدى إلى انقسام الحزب عمودياً بين حزب يهودي، بقيادة حانوخ بسوسا، ويضم شموئيل ميكونيس ومئير فيلنر، وبين خروج الأعضاء العرب وتشكيل "عصبة التحرر الوطني". عقد الشطر اليهودي مؤتمر الحزب الثامن في آب/أغسطس ١٩٤٢، واعتُرف بالحزب رسمياً في سنة ١٩٤٤، وحصل في السنة ذاتها على رخصة إصدار جريدته الحزبية "كول هعام"، ولاحقاً غيّر الحزب اسمه إلى "الحزب الشيوعي لأرض إسرائيل"، فقد تبنّى هذا الحزب تعابير "أرض إسرائيل" و"عرب أرض إسرائيل"، بدلاً من تعابير فلسطين وشعب فلسطين (كرزم ١٩٩٣، ص ٩ ـ ١٠).

أظهر تمفصل مواقف الحزب قومياً وأفقياً عمق الصدع بين الاستعماري والأصلاني، واستحالة تغليب الطبقي في ظل وجود مشروع استعماري لجماعة قومية تتحول من مجرد هامش إلى قوة مركزية تهدد وجود فئة السكان الأصلانيين. إزاء ذلك، كان لا بد من أن يقابَل وجود المشروع الاستيطاني بالرفض من أهل البلد، وكان من إرهاصات ذلك أن يتم عملياً رفض "الشرعنة"، أياً تكن ديباجتها، لمثل هذه المشاريع الاستعمارية. وعلى الرغم من محاولات الحزب أن يأخذ طابعاً أقرب إلى أهل البلد (تحت تسمية التعريب، وبضغط من الكومنترن)، وأن يتبنّى خطاباً "تقدمياً وطبقياً عابراً للقوميات"، فإنه لم ينجح في ذلك، إذ رفض أعضاء الحزب اليهود مسار التعريب، بينما رفض العرب مسار "الصهينة"، وكان أن انتهى الأمر بأن تحول الحزب إلى تنظيم مشحون بالتوترات والصراعات القومية، وإلى مرآة لصراع محتدم بين مشروع استعماري، وآخر وطني أصلاني يتجاذب كل طرف فيه الحزب إلى اتجاهه، حتى انشقاق الحزب عمودياً، ليصبح هنالك حزب شيوعي للمستعمر هو "الحزب الشيوعي لأرض إسرائيل"، وآخر لأبناء البلد هو "عصبة التحرر الوطني". وفي حين انتصر الحزب اليهودي للصهيونية، وانضم أعضاؤه إلى صفوف المقاتلين اليهود في سنة ١٩٤٨، انتصر أعضاء عصبة التحرر لأبناء شعبهم وقضيتهم، الأمر الذي أدى إلى فشل الحزب عملياً في تحويل الهوية الطبقية إلى هوية جامعة وبديلة من الهوية القومية.

ب ـ الهوية القومية في مقابل الهوية الطبقية

يتميز المنظور الماركسي الذي يشكل رافد الحزب الشيوعي الأيديولوجي، برؤيته القائمة على أن المحرك الطبقي هو أساس الصراعات، وأن النزعة القومية هي نزعة ثانوية حيناً، وبورجوازية حيناً آخر. وهذا المنظور يتناقض، عملياً، مع المنظور القومي الذي يفترض أن الهوية القومية تشكل المبدأ المؤسس للمطالبة بحق الجماعة في تقرير المصير.

مع قطع العلاقة مع الصهيونية بعد سنة ١٩٢٣، وتبنّي سياسة التعريب، سعى أعضاء الحزب اليهود لاستقطاب العرب إلى صفوفهم، فتم في سنة ١٩٢٤، وبالتعاون مع إيليا زكا،[٦] إصدار "مجلة حيفا" التي سبق أن صدر منها عدد واحد في سنة ١٩٢١، لتكون عملياً أول مجلة عربية يسارية تصدر في فلسطين، وتشكل منبراً للحزب ولأفكاره الشيوعية (الشريف ٢٠٠٤، ص ٣٩٧؛ سليمان ٢٠١١، ص ٢٧).

وتلاحق بعد ذلك إصدار العديد من المجلات والنشرات التي طُبعت ووُزعت بسرية شديدة، وعبّرت عن رؤية الحزب الشيوعية، وكان أهمها، بحسب الباحث ماهر الشريف (الشريف ٢٠٠٤،

ص ٣٩٧)، "مجلة حيفا"، وصحيفة "المنبّه"، ومجلة "إلى الأمام"، وصحيفة "الجبهة الشعبية"، فضلاً عن عدد آخر من الدوريات التي كانت تصدرها منظمات الحزب الرديفة، مثل "اتحاد الشباب" الشيوعي، أو منظماته المساعدة مثل "جمعية المساعدة الحمراء"، و"الكتلة العمالية" المعروفة بـ "الفركتسيا".

شكلت تلك المنشورات منبراً مهماً لصوغ ونشر خطاب جديد يقوم على مفهمة الصراع في فلسطين على أساس الفروقات الطبقية وليس القومية، واعتبار الفروقات الأخيرة غطاء للصراع الطبقي الأصلي. ومن هنا، اعتبر خطاب الشيوعيين أن النضال الصحيح يجب أن يكون في الدفاع عن المصالح المشتركة للعمال، والوقوف في وجه "الأفندية، والإنجليز، والصهيونيين، والبورجوازية الصهيونية، والرجعية المحلية" (الشريف ٢٠٠٤، ص ٣٩٧). وفي هذا السياق، عدّد الحزب، في الذكرى العاشرة لتأسيسه، أهم نجاحاته التي تضيء على أهدافه أيضاً: "اليوم كل عامل وفلاح في فلسطين يعرف بأن الحزب الشيوعي الفلسطيني يريد تحرير البلاد من الاستعمار الإنجليزي، ويريد تحرير العمال من استغلالهم الشديد، ويريد أن يشتغل العمال ثماني ساعات وتكون أجرتهم طيبة، ويريد أن يُحرَّر الفلاحون من ثقل الأعشار والويركو والعربون وتقسيم أراضي الأغنياء بين الفلاحين" (الشريف ٢٠١١).[٧]

وضع الحزب الشيوعي الفلاح الفلسطيني والعمال العرب واليهود في خانة "فوق قومية" واحدة في مواجهة القوى الاستعمارية والبورجوازية، وشدد على وحدة المصير للطبقات العاملة، بغضّ النظر عن الدين والإثنية، ولذلك لم يعرّف الحزبُ "الأجنبيَّ" على أسس قومية، وإنما على أساس العلاقة مع المشروع التحرري. وفي هذا السياق، نُشرت في جريدة "المنبه"، في ٣٠ آذار/مارس ١٩٢٦، مقالة تحمل كثيراً من الأخطاء اللغوية ـ الأمر الذي يشي بأن كاتبها ربما ليس عربياً ـ بعنوان: "ونحن نقول دائماً مَن هو الأجنبي ومَن هو المضر بالوطن"، وجاء في سياقه: "إن الأجنبي هو مَن حضر إلى هذه البلاد للاستعباد والظلم، والوطني هو الذي يحارب لأجل حرية شعوب الفقيرة وتخليصهم من نير الاستعمار" (الشريف ٢٠١١)،[٨] وهو ما يعني أن الموقف من "الأجنبي" يتحدد تبعاً للمواقف التي يتخذها الأخير، وليس وفقاً لانتمائه الإثني. لكن تبنّي هذه المواقف من طرف حزب أقيم على يد مجموعة من المستوطنين ـ المهاجرين كان يحيل إلى خطاب إشكالي من وجهة نظر السكان الفلسطينيين، وهو ما اتضح، مثلاً، في قضية تنظيم العرب، خلال تلك الفترة، في المنظمات العمالية ذات الطابع الصهيوني، كالهستدروت، وفي تردد الحزب حيال اتخاذ مواقف واضحة من قضية الهجرة التي كانت تهدد الوجود الفلسطيني ـ الأمر الذي حدث فعلاً ـ فضلاً عن وقوف الشيوعيين اليهود، في نهاية المطاف، إلى جانب اليهود الصهيونيين في لحظة الحسم عشية حرب ١٩٤٨.

ودعا الحزب، من خلال "مجلة حيفا" مثلاً، العمال العرب واليهود إلى الانتظام في نقابات مشتركة، داعياً العمال العرب إلى الانضمام إلى النقابات التابعة للهستدروت، والنضال من داخلها مع العمال "الثوريين" اليهود ضد "أعدائهم الطبقيين" المشتركين (الشريف ٢٠١١). وفعلاً، فإن كثيرين من العمال العرب، وبتشجيع من الحزب، انضموا إلى نقابة عمال سكة الحديد في حيفا، التي كانت تتبع الهستدروت، غير أن هذا الانضمام أثار موجة غضب واسعة في صفوف القيادات الفلسطينية الوطنية؛ فعلى سبيل المثال لا الحصر، نشرت جريدة "فلسطين" مقالة بعنوان "الروح الخبيثة"، حذّرت فيه العمال العرب من الاشتراك مع عمال اليهود في إضراباتهم، أو في أي عمل من أعمالهم، لأنهم بذلك يضرون بالقضية العربية ويطعنون القومية في الصميم، الأمر الذي يدفع أبناء بلدهم إلى نعتهم بـ "الخائنين" (الشريف ٢٠٠٤). وقد أدت موجة المعارضه تلك بالعمال

العرب إلى الانسحاب لاحقاً من النقابة التابعة للـهستدروت، وإقامة نقابة خاصة بهم (الشريف ٢٠٠٤).

لكن في ظل تصاعد المشروع الصهيوني الاستعماري، وتنامي المقاومة الفلسطينية ضده وضد الانتداب معاً، كان الصدع الداخلي في الحزب يتعمق بين فئتَي المهاجرين ـ المستوطنين اليهود، والفلسطينيين من أبناء البلد، ويتزايد معه انجذاب التيار اليهودي في اتجاه الصهيونية، في مقابل انجذاب التيار العربي نحو الحركة الوطنية الفلسطينية. ووصل هذا الصراع إلى ذروته في أيار/مايو ١٩٤٣، حين انشق الأعضاء العرب، وعلى رأسهم إميل حبيبي، وبولس فرح، وإميل توما، وتوفيق طوبي، وأسسوا "عصبة التحرر الوطني" في سنة ١٩٤٤، بيما استمر اليهود، بقيادة شموئيل ميكونيس، ومئير فيلنر، وإستر فيلنسكا، في العمل تحت اسم الحزب الشيوعي في فلسطين، بل إنهم انخرطوا لاحقاً في صفوف الميليشيات اليهودية الصهيونية في حربها ضد الفلسطينيين.

كان الانشقاق بمثابة لحظة حقيقة للشيوعيين العرب واليهود، فقد ظهر عملياً أنه، وفي لحظة الحسم، تراجع العامل الطبقي ولم يبق إلاّ البعد القومي. واستلهاماً من روحية كارل شميدت، فإنه جرى الفصل بين العدو والصديق على أساس عمودي، وتبعاً للـهوية القومية فقط، من دون أي اعتبار للبعد الطبقي أو غيره. وعلى الرغم من أن الانشقاق ارتبط موضعياً بالموقف من التجند في الفرقة اليهودية التي أُنشئت كي تحارب في إطار الجيش البريطاني ضد ألمانيا ودول المحور خلال الحرب العالمية الثانية، وكان من المبادرين إلى تشكيلها موشيه شاريت، فإن الانشقاق ما كان ليتحقق لولا توفر عامل حاسم هو قرار الاتحاد السوفياتي في أيار/مايو ١٩٤٣ حلّ "الكومنترن" كبادرة حسن نية تجاه حلفائه في الحرب العالمية الثانية، الأمر الذي حرر عملياً الأحزاب الشيوعية، موقتاً، من هيمنة موسكو التنظيمية والفكرية.

وعلى الرغم من أن الشيوعيين العرب رفعوا من خلال "عصبة التحرر الوطني" شعار محاربة الانتداب والصهيونية، والسعي لإقامة دولة فلسطينية ديمقراطية تضم العرب واليهود، فإن العصبة اقتصرت على الأعضاء العرب، وكانت بمثابة حاضنة وطنية فلسطينية مميزة يطغى عليها طابع يساري تقدمي إنساني، وتتبنّى خطاباً مساواتياً، وقد انضم إليها ممثلو الفئات المتوسطة والمثقفون وممثلون عن النقابات العمالية والأندية (حجازين ٢٠٠٦).

تبنّى أعضاء العصبة مواقف مناهضة لمشاريع التقسيم،[٩] والتي بدأت تُطرح بعد تقرير لجنة بيل في سنة ١٩٣٧ لـ "حلّ الصراع" بين اليهود والفلسطينيين. وفي المذكرة التي أرسلها مكتب سكرتارية العصبة في سنة ١٩٤٥ إلى رئيس الحكومة البريطانية، كليمنت أتلي،[١٠] جاء أن: "التقسيم هو أخطر حل يجر البلد إلى المصائب والاضطرابات الداخلية." وتشرح المذكرة أن حل الوضع يكون عبر إنشاء دولة واحدة ديمقراطية تساوي عملياً بين السكان على أساس مواطناتي، وليس على أساس إثني. وورد فيها أيضاً: "نحن لا نعتقد بضرورة أن ينشأ هناك تناقض بين الحقوق الديمقراطية للسكان اليهود في فلسطين، وبين الأماني القومية للشعب العربي فيها، بل نحن لا نعتبر الحالة الراهنة حالة طبيعية. إن ما قاد إلى هذا الوضع هو السياسة الاعتدائية الاحتلالية للصهيونيين، وما تحمله من أخطار تهدد الشعب العربي، وهي السياسة الرجعية التي انتهجتها الإدارة المحلية."[١١]

ويعكس هذا التوجه، عملياً، تبنّي عصبة التحرر نموذج "القومية المدنية" التي تتعامل مع السكان اليهود والعرب في فلسطين بصفتهم شركاء محتملين في "جماعة مواطناتية غير إثنية" تشكل أساس الدولة الديمقراطية. ويتعارض نموذج القومية المدنية ذاك مع نموذج القومية الإثنية الحصرية للفلسطينيين

العرب الذي تبنّته القيادات التقليدية في حينها، بقيادة المفتي العام للقدس، الحاج أمين الحسيني. وفي ظل رفض "الحل الإثني"، عاد سكرتير العصبة، إميل توما، ليؤكد في تموز/يوليو ١٩٤٧، خلال مؤتمر صحافي عقده في القدس، رفض مشروع إقامة "الدولة اليهودية" في فلسطين بصفته مشروعاً "لضرب حركة التحرر العربية في المنطقة."[١٢]

غير أن تقاطع مجموعة من العوامل الخارجية المستجدة أدى لاحقاً إلى تغير موقف أعضاء العصبة، وإلى قبول قرار التقسيم رقم ١٨١. وأظهر هذا التغير، عملياً، عمق العلاقة بين اتخاذ المواقف من قضايا قومية ومحلية بمتغيرات خارجية لها حساباتها الاستراتيجية الخاصة، وعلى رأسها، في هذه الحالة، الدخول في حقبة الحرب الباردة، واحتدام التنافس على النفوذ بين أميركا والاتحاد السوفياتي. لقد أدت الحسابات الاستراتيجية التي خطّها الاتحاد السوفياتي إلى انقلاب جذري في موقف العصبة، وإلى التحول من المعارضة إلى الموافقة على التقسيم، وإلى أداء دور حاسم في دعم إقامة إسرائيل كما يعتقد على الأقل بن ـ غوريون الذي قال خلال مقابلة أُجريت معه في سنة ١٩٧٠، في نطاق البرنامج التلفزيوني الحواري "موكيد"، ونشر ترجمتها مركز مدار: "**إن دولة الاتحاد السوفياتي هي التي كانت أول مَن بادر في حينه إلى تقديم الاقتراح إلى الأمم المتحدة بشأن وجوب قيام 'دولة يهودية' " في فلسطين الانتدابية، فقد أشار بن ـ غوريون، في هذا الصدد، إلى أن "الدولة الوحيدة التي ساندتنا ووقفت إلى جانبنا في اللحظة الحاسمة الكبرى هي روسيا**"[١٣] (عياش ٢٠١٦، ص ١٤١).

يمكن القول، إذاً، إن الاتحاد السوفياتي راهن على أن دولة يهودية في فلسطين، تتبنّى أغلب الحركات والأحزاب فيها توجهاً اشتراكياً، من الممكن أن تكون حليفة له. ويمكن أن نستنتج هذا الرهان من رسالة التحذير التي بعث بها المبعوث السوفياتي في العراق ألكسندر سلطانوف إلى رؤسائه، وأنذرهم فيها من عواقب موقفهم (والتي سأتطرق إليها في البند اللاحق) (تلحمي ٢٠١٢). ومن المهم هنا التشديد على أن إعادة إلحاق الأحزاب الشيوعية عامة، والشيوعيين في فلسطين خاصة، بالمواقف السوفياتية، جاء في ظل إعادة تفعيل "الكومنترن" بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وتجديد الارتباط التنظيمي والفكري بينه وبين الأحزاب الشيوعية في العالم، بما فيه فلسطين.

ج ـ التناقض بين الوطني والخارجي

على عكس الأحزاب العربية التي نشطت في فلسطين الانتدابية، وعملت إلى حد ما باستقلالية، ارتبط الحزب الشيوعي في فلسطين بالمواقف التي جرى صوغها في اللجنة المركزية للحزب في موسكو. فحتى بداية الحرب العالمية الثانية، ارتبط الحزب الشيوعي في فلسطين، تنظيمياً، بـ "الكومنترن"، وبالسياسات والتوجيهات التي حددها الأخير، الأمر الذي أثّر في قدرة الحزب في فلسطين على التعامل باستقلالية مع قضاياه الوطنية. وللوقوف على عمق الارتباط بين مواقف الحزب وسياسات الاتحاد السوفياتي، بما يتجاوز مثال "الكومنترن" الذي سبقت الإشارة إليه، يمكن تتبّع تغيّر مواقف الحزب في القضايا القومية تبعاً لعمق العلاقة مع الاتحاد السوفياتي في فترات متفاوتة؛ فمثلاً تبنّت عصبة التحرر، في ظل حل "الكومنترن" وانشغال الاتحاد السوفياتي بالحرب العالمية الثانية وتحالفه مع قوات الحلفاء، خطاباً وطنياً يقدم القومي على الطبقي، غير أن هذا الموقف بدأ يتغير في ظل إعادة تمتين العلاقة بين الأحزاب الشيوعية والاتحاد السوفياتي في أعقاب تعافيه من إنهاك الحرب العالمية الثانية أولاً؛ وتالياً إقامة ستالين لـ "الكومنفورم" (مكتب الإعلام الشيوعي) في سنة ١٩٤٧، والذي شكّل إطاراً تنظيمياً بديلاً من "الكومنترن"، ثم احتدام الحرب الباردة بين الاتحاد السوفياتي وأميركا لاحقاً. وبينما أعطى

"فتور" العلاقة مع الاتحاد السوفياتي خلال الحرب مساحة للشيوعيين العرب واليهود، على حد سواء، من أجل اتخاذ مواقف متناغمة مع "مصالحهم"، فإن هذه الاستقلالية تراجعت لاحقاً حتى وصلت إلى درجة الارتباط الكامل الذي تجلى في تبنّي موقف الاتحاد السوفياتي المتعلق بالتقسيم. لقد كان تبنّي الحزب الشيوعي للتقسيم، بحسب الباحث ماهر الشريف، دلالة على أن "الحزب لا يتصرف باستقلالية، بل يخضع لقيادة الحزب في الاتحاد السوفياتي ولقراراته وتوجيهاته" (الشريف ٢٠٠٤، ص ٨٥).

هذا "الإلحاق" كان قد بدأ مع تبنّي المؤتمر السادس لـ "الكومنترن" العالمي، في سنة ١٩١٩، سياسة "طبقة ضد طبقة"، والتي تم وفقها التعامل مع الصراع في فلسطين من منظور صراع الطبقة العمالية لليهود والعرب في مواجهة البورجوازية العربية واليهودية الصهيونية على حد سواء، الأمر الذي عنى، بحسب الشريف (الشريف ٢٠٠٤، ص ٨٥)، ليس فقط الوقوف على مسافة واحدة من البورجوازية العربية والصهيونية، بل اتخاذ مواقف مناهضة لسياسات القوى الوطنية البورجوازية العربية التي ركزت على الطابع القومي للصراع. وقد انعكس هذا الأمر، بحسب الشريف أيضاً، مباشرة على مواقف الحزب الشيوعي في فلسطين، والذي اتخذ موقفاً مناهضاً من قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية، وهاجم سياستها معتبراً أن مطالبها بإقامة مجلس تشريعي، هي "هدف الزعماء الخونة الذين يرون فيها وسيلة لتسلّم المناصب العليا في الإدارة، وفرصة للجلوس إلى جانب الإمبرياليين الإنجليز."[١٤]

علاوة على ذلك، أدى هذا "الإلحاق" إلى تعرّض أعضاء الحزب للنقد اللاذع، واتهامهم بأنهم مجرد "أدوات" في يد الاتحاد السوفياتي يحركها وفقاً لمصالحه، وذلك أمر متناقض، بالضرورة، مع المصالح القومية لشعوبهم. وفي هذا السياق مثلاً، كتب راشد حسين، الذي كان بنفسه عضواً في "مبام"، في سنة ١٩٥٩: "إن مصيبة الحزب الشيوعي في كل بلد تكمن في تقلّبه. وتقلّب الحزب الشيوعي مرتبط بسياسة موسكو. وسياسة موسكو مرتبطة بمصالح الاتحاد السوفياتي. ومصالح الاتحاد السوفياتي لا يمكن أن تعبّر عن مصالح كل بلد يوجد فيه حزب شيوعي" (ويعدّد حسين جملة التقلبات التي مر بها أعضاء الحزب، مثل ميكونيس وطوبي وحبيبي، ليؤكد بكلماته الانقياد الأعمى وراء التوجيهات التي تصدر في موسكو، وخصوصاً فيما يتعلق بالموقف من التقسيم وإقامة دولة يهودية، الأمر الذي رفضه الشيوعيون العرب، ثم عادوا وقبلوا به بعد الخطاب الشهير لنائب وزير الخارجية السوفياتية، أندريه غروميكو)،[١٥] وذلك ما سيتم تفصيله في الجزء اللاحق (حسين ١٩٥٩).

د ـ إلحاق الوطني بالخارجي في ظل الحرب الباردة

كما ذكرت سابقاً، فقد تمسكت عصبة التحرر الوطني، حتى ١٩ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧، بموقف واضح معارض لتقسيم فلسطين، ومناهض بشدة للصهيونية، باعتبارها وكيلة مصالح استعمارية وإمبريالية. وتناغم هذا الموقف مع المواقف الكلاسيكية السوفياتية المناهضة للصهيونية، كما تناغم مع موقف لينين[١٦] وقرارات "الكومنترن" في المؤتمر الثالث لسنة ١٩٢٠، وجاء متناسقاً مع التحليل الماركسي للمسألة القومية عامة، وللموقف من المسألة اليهودية خاصة، كما عبّر عن ذلك كارل ماركس.

وما دام الاتحاد السوفياتي واقفاً ضد الصهيونية ومخططات التقسيم،[١٧] لم يكن أمام العصبة سوى التعبير عن موقف السواد الأعظم للعرب من رفض اقتسام فلسطين. لكن العصبة وجدت نفسها أمام موقف إشكالي مع تغيّر موقف الاتحاد السوفياتي في سنة ١٩٤٧، مثلما جرى الإعلان بشأنه في خطاب غروميكو في ١٤ أيار/مايو من السنة ذاتها، في الاجتماع

الاستثنائي للجمعية العامة للأمم المتحدة الذي خُصص لبحث مصير فلسطين. فقد أعلن غروميكو، في ذلك الخطاب، موافقة الاتحاد السوفياتي على مخطط تقسيم فلسطين إلى دولتين، واحدة يهودية وأُخرى عربية، قائلاً: "إن التجربة السابقة، وخاصة أثناء الحرب العالمية الثانية، تُظهر أن ليس هناك دولة أوروبية غربية تمكنت من توفير مساعدة ملائمة للشعب اليهودي في الدفاع عن حقوقه وعن وجوده تجاه عنف الهتلريين وحلفائهم. وهذا واقع غير سارّ، ولكن ينبغي، لسوء الحظ، كما بالنسبة لوقائع أُخرى، الإقرار به... وهو ما يفسر تطلعات اليهود لإقامة دولة خاصة بهم. وسيكون من غير العدل ألاّ نأخذ ذلك بعين الاعتبار، وأن ننكر على الشعب اليهودي تحقيق تطلعه هذا" (تلحمي ٢٠١٢).

يمكن الادعاء، إذاً، أن تغير موقف الاتحاد السوفياتي من التقسيم أولاً، والصهيونية ثانياً، ليس نابعاً من "غيرة" على المصلحة الفلسطينية القومية، وإنما يرتبط، بحسب كثير من الباحثين، بتغير السياق التاريخي والظروف السياسية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وإرهاصات الحرب الباردة التي يؤرخ لها بخطاب الرئيس الأميركي في حينها، هاري ترومان، في ١٩٤٧/٣/١٢، والذي تحدث فيه عن ضرورة "احتواء" التمدد السوفياتي والشيوعي في العالم. وفي هذا السياق، يشير الكاتب الفلسطيني داود تلحمي إلى أن خطاب ترومان شكّل نقطة تحول صارت موسكو في أعقابها تنظر إلى "مختلف القضايا الدولية من منظار تلك المواجهة" (تلحمي ٢٠١٢). وفي خضم ذلك، وتحت زعامة ستالين الحديدية، فإن المواقف من القضايا لم تعد تقاس وفقاً لعلاقتها بمصطلحات كـ "الأممية" و"الطبقية"، وإنما وفقاً للمصالح المحددة في سياق المواجهة المستجدة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة. وقد رأى الاتحاد السوفياتي، أو، على الأقل، راهن على أن تكون الدولة اليهودية منطقة نفوذ له، أو منطقة متحالفة معه على أقل تقدير، وذلك في منطقة تحكمها أنظمة عربية "رجعية" متحالفة مع بريطانيا.

عطفاً على ذلك، يجدر التذكير هنا بما أشرنا إليه في موضع سابق، وهو أن ألكسندر سلطانوف، القائم بأعمال السفارة السوفياتية في العراق، كان قد حذّر، وقتذاك، في مذكرة داخلية بعث بها إلى موسكو، عشية التصويت على قرار تقسيم فلسطين، من أن النتائج السلبية المحتملة للدعم السوفياتي للدولة اليهودية تفوق النتائج الإيجابية، مشيراً إلى احتمال نفور العالم العربي، وتدعيم التحالف بين بريطانيا والولايات المتحدة والحكام الرجعيين في الجامعة العربية، وتعزيز كتلة إسلامية معادية للسوفيات مكونة من الجامعة العربية وتركيا وباكستان، واضطهاد "الحركة الديمقراطية والثورية"، والأهم من ذلك، احتمال أن "تتحول الدولة الصهيونية إلى قاعدة للتمدد الأميركي" في الشرق الأوسط (تلحمي ٢٠١٢).

وضع "الانقلاب" السوفياتي العصبة في مأزق كبير، وهدد صدقيتها وما اكتسبته حتى ذلك الحين من رأس مال رمزي بسبب مواقفها المناهضة للصهيونية وللتقسيم. وقوبل الموقف السوفياتي بمعارضة بعض القيادات المركزية للعصبة، مثل إميل توما وبولس فرح، لكن تبنّاه كل من توفيق طوبي وإميل حبيبي. وبادر الموافقون، بعد ثلاثة أشهر من صدور قرار التقسيم، إلى عقد مؤتمر لعصبة التحرر في الناصرة، في شباط/فبراير ١٩٤٨، انتُخب فيه فؤاد نصار أميناً عاماً للعصبة، واستُثني منه المعارضون، وتم فيه إعلان موافقة العصبة على التقسيم. بمعنى آخر، تم خلال هذا المؤتمر إسكات المعارضة. وفي هذا السياق، يشير أحد الشيوعيين الذين عاصروا تلك الأحداث إلى أن اجتماعاً للمعارضين عُقد في حيفا في ذلك الوقت، **دعا فيه البعض إميل توما إلى إقامة حزب جديد يعارض قرار هيئة الأمم المتحدة**، لكنه لم يوافق على ذلك.[١٨]

وعلى الرغم من المحاججات التي تبنّاها الشيوعيون الفلسطينيون خاصة، والعرب عامة، بأن الموافقة على التقسيم جاءت لدرء نكبة محدقة، وقبول الخيار الأقل سوءاً، فإن تزامن هذا "الانقلاب" مع تغيّر موقف موسكو، ساهم في إظهار الشيوعيين بمظهر "الملحق" بموسكو، والذي "يأتمر" بأوامر خارجية، كما عبّر عن ذلك الشاعر راشد حسين في مقالته الشديدة اللـهجة: "حين يجوع التاريخ" (حسين ١٩٥٩).

II ـ صيرورة التناقضات في ظل النكبة وإقامة الدولة اليهودية

• الخروج من الوطن ومحاولات الدخول في الدولة

تُظهر بعض وثائق أرشيف الحزب الشيوعي الإسرائيلي، الذي فُتح أمام الجمهور في سنة ٢٠١٦، أن بعض أعضاء العصبة انضموا إلى جهود تطبيق قرار التقسم مباشرة بعد صدور القرار في ٢٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، بينما تأخرت موافقة البعض الآخر. فقد أظهر بروتوكول مكتوب بخط اليد لاجتماع عُقد في ٣٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٧، وشارك فيه عن العصبة إميل حبيبي، وفؤاد نصار، وشخص ثالث اسمه غير واضح، وعن الحزب الشيوعي شورا وولف، أن التنسيق بين أعضاء من عصبة التحرر وأعضاء من الحزب الشيوعي من أجل تنفيذ قرار التقسيم بدأ مباشرة بعد إقراره، وقد جاء في بروتوكول الاجتماع: "تم التوصل إلى اتفاق فيما يخص الوظائف الحالية التي تقف أمامنا: تحقيق استقلال كامل من خلال محاربة الإمبريالية؛ محاربة كل تحدّ سواء داخلي أو خارجي... وفيما يتعلق بمقترح العمل، جرى التوافق على أنه خلال الفترة الأولى سيكون وضع الرفاق اليهود أسهل، وأنهم سيسعون للتوصل إلى اتفاقات مع أحزاب يسارية أُخرى في المعسكر اليهودي.... العرب سيضطرون إلى السباحة عكس التيار."[١٩]

بعد الموافقة على التقسيم، وفي أعقاب إقامة إسرائيل، تم إدماج الشيوعيين العرب الذين وافقوا على قرار التقسيم وسيطروا على عصبة التحرر، في الحزب الشيوعي الإسرائيلي الذي أُعلن تأسيسه في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨. لكن هذا الاندماج جاء في ظل تقاطع مجموعة من العوامل المهمة، وفي سياق مركّب من المهم تفكيكه لفهم آثاره الاستراتيجية في تطور علاقة الحزب بالمسألة القومية، وخصوصاً في مرحلة إقامة إسرائيل في سنة ١٩٤٨، والأعوام الأولى التي تلت ذلك:

١ ـ الاندماج تم بقيادة جزء من أعضاء العصبة، وليس بالإجماع، بل إنه كان محل صراع داخلي، وجاء من طرف المجموعة ذاتها التي يقف على رأسها توفيق طوبي وإميل حبيبي، والتي نجحت، خلال مؤتمر شباط/فبراير في الناصرة، بفرض الموافقة على التقسيم على الرغم من معارضة جناح إميل توما.[٢٠] وقد سبق ذلك قيام الأعضاء العرب بنقد ذاتي أعلنوا فيه أنهم أخطأوا بعدم العمل مع الشيوعيين اليهود، بينما تم استبعاد إميل توما لمعارضته قرار التقسيم، ولم تتم إعادته إلاّ بعد أن قام بكتابة نقد ذاتي، ومُنع حتى سنة ١٩٧٠ من تقلد أي منصب رسمي (جمال ٢٠١٠؛ Budeiri 1979).

٢ ـ جاء الاندماج عملياً في ظل أجواء من التوافق بين الاتحاد السوفياتي والقيادة الصهيونية على إقامة الدولة اليهودية في فلسطين.

٣ ـ عُقد مؤتمر الاندماج في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨ في حيفا، بعد أشهر قليلة من طرد معظم سكان حيفا العرب ما بين كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٧ ونيسان/أبريل ١٩٤٨ (العارف ١٩٥٦، ص ٢١٠–٢١٧)، وبعد أن هدمت العصابات الصهيونية فيها أغلبية الأحياء العربية التي تحولت إلى خرائب بإشراف مباشر

من رئيس البلدية، آبا حوشي، وذلك لمنع عودة لاجئيها.

٤ ـ جاء الاندماج على خلفية المشاركة الفاعلة لأعضاء الحزب اليهود في المجهود الحربي والسياسي لإقامة الدولة، وتمكّن الصهيونية من إقامة دولتها على أنقاض نكبة الفلسطينيين.

من هنا، يمكن الاستنتاج أن اندماج العصبة شكل، عملياً، تتويجاً لانتصار تيار الفكر الصهيوني الذي دافع عنه الأعضاء اليهود في الحزب قبل إقامة إسرائيل، ودعا إلى حل على أساس قومي ـ إثني (دولة ثنائية القومية)، وانهزاماً للتوجه "القومي المدني" الذي طرحه التيار العربي عبر دعوته إلى إقامة دولة واحدة "ديمقراطية علمانية"؛ أو ببساطة انتصاراً ـ ولو مرحلياً ـ لتيار ميكونيس على تيار إميل توما. وقد انعكس هذا الانتصار مباشرة على خطاب الحزب ومواقفه من مختلف القضايا، وعلى محاولاته مَفهمة وصوغ الخريطة الاجتماعية والسياسية وتفصيلاتها. ومن مراجعتي لصحيفة "الاتحاد" في الأعوام الثلاثة الأولى التي تلت إقامة إسرائيل، كان واضحاً وجود محاولة لتغييب البعد الاستعماري للدولة، في مقابل تكثيف التوصيف المستمد من القاموس الماركسي والصراع الطبقي، فكانت "الاتحاد" تنشر التقارير التي يعدّها مراسلها الخاص عن معاناة "اللاجئين" في "مخيمات اللجوء"، وتوغل في وصف حياتهم المزرية، وتعدّد الاحتجاجات التي يقودها الشيوعيون للاعتراض على سياسات الدولة المناوئة للطبقات المسحوقة تارة، وللاجئين تارة أُخرى، ليتبيّن أن "اللاجئين" المقصودين هم المهاجرون اليهود الوافدون إلى إسرائيل، وأن "مخيمات اللجوء" هو الاسم الذي أطلقه الحزب على "المعبروت"، أو أماكن السكن الموقتة لهؤلاء المهاجرين الذين ستنزع الدولة إلى توطين جزء كبير منهم في بيوت الفلسطينيين الذين طُردوا أو نزحوا في فترة الحرب من بيوتهم، ومُنعوا من العودة إليها.

وفي المقابل، كانت الصحيفة تتجاهل، أو تتراخى، على الأقل، تجاه معاناة الفلسطينيين وما لحق بهم، لأن الحزب اعتبر ما أصابهم نتاجاً لمؤامرة اشتركت فيها الرجعية العربية.

لكن رصد مواقف الحزب وخطاباته في المرحلة التي تلت إقامة إسرائيل يُظهر أن علاقة الحزب بالدولة، وبالتالي بالمسألة القومية، مرت أولاً بمرحلتين متمايزتين، وتالياً كان ثمة خطاب متناقض: المرحلة الأولى هي مرحلة هيمنة الخط الصهيوني على الحزب، والذي يقع في صلبه التماهي مع الدولة ومؤسساتها، ويترتب عليه استبدال خطاب الوطن بخطاب المواطنة، وتحويل المساواة في ظل "الدولة" لتصبح مشروع النضال المتبنّى. وقد استمرت هذه الفترة منذ إقامة إسرائيل (وللدقة منذ الموافقة على قرار التقسم) حتى بداية سنة ١٩٥٣، ووجدت خير تعبيراتها في الخطابات السياسية للشيوعيين العرب؛ أمّا المرحلة الثانية التي يمكن تسميتها مرحلة "الخيبة" من الدولة والعودة الرمزية إلى الوطن، فابتدأت مع أفول المرحلة الأولى في بدايات سنة ١٩٥٣، ووصلت إلى ذروتها في انقسام الحزب مجدداً على أساس قومي في سنة ١٩٦٥، واتسمت بأمرين: أولاً باعتماد الحيز الثقافي حاضنة ومنبراً لإنتاج "الإيثوس" (روح الشعب) القومي الأصلاني الفلسطيني، وثانياً بأن المرحلة هذه تأسست على يد جيل شاب لم يكن جزءاً من الصدامات السابقة بين التيار الصهيوني والعربي، ومن أهم رموز تلك الفترة: توفيق زيّاد، وسميح القاسم، ومحمود درويش.

● مرحلة التماهي، ١٩٤٨ – ١٩٥٣

اعتبرت عصبة التحرر أن قبول قرار التقسيم يشكل أساساً لحل الصراع في فلسطين، لكنها لم تُبدِ اعتراضاً حقيقياً على ضم المناطق المعدّة للدولة العربية، بحسب القرار، إلى سيطرة إسرائيل، بل زيادة على ذلك، وبحسب وزير الأقليات الإسرائيلي الأول، باخور شطريت، "كان

أعضاء عصبة التحرر العرب أول مجموعة منظّمة مثلت أمام سلطات الدولة، وأعلنت أعضاءها رعايا لدولة إسرائيل،"[٢١] حتى في مناطق كالناصرة.

ونشرت جريدة "دافار" العبرية في ١٥ أيلول/سبتمبر ١٩٤٨، وعلى صفحتها الأولى، ترجمة لأحد المناشير التي وزعتها العصبة في جريدة "معاريف"، جاء فيها: "عصبة التحرر الوطني تطلب خروج الجيوش العربية، وتنفيذ قرار الامم المتحدة."[٢٢] ورفعت العصبة شعارات تندد بدخول الجيوش العربية إلى فلسطين، منها: "أيها المحتلون الخونة، اخرجوا من بلادنا"، كما وجهت نداءات إلى الجنود في الجيوش العربية تدعوهم فيها إلى "العودة إلى أوطانهم وتوجيه ضرباتهم إلى المستعمر المحتل وإلى أذنابه."[٢٣] وبينما كان خطاب العصبة السابق يتحدث عن مواجهة ذات طابع قومي، ويعارض بشدة خطط التقسيم، صار خطابها اللاحق يتحدث عن "حرب بين الشعوب وبين الاستعمار الذي تمثله بريطانيا، وبين الشعوب والرجعية"،[٢٤] في حين ظل مفهوم الرجعية فضفاضاً يتسع لكثير من المقاصد.

ونشرت صحيفة "معاريف" الإسرائيلية، في ٣ نيسان/أبريل ١٩٤٨، أن عصبة التحرر وزعت جريدة باسم "المقاومة الشعبية"، دعت فيها إلى مقاومة الجيوش العربية. ويذكر المؤرخ عادل مناع، في هذا السياق، أن صحيفة "الاتحاد" بدأت تتحدث عن "تحرير الجليل" من جيش الإنقاذ ومن فوزي القاوقجي، مع العلم أنه كان من المفروض أن تكون الجليل ضمن الدولة الفلسطينية وفق قرار التقسيم الذي أيدته. ويذكر كذلك أنه يتضح من وثائق الاستخبارات الصهيونية في حينه "شاي" وجود دعوة إلى عدم التعرض للشيوعيين العرب وعدم ملاحقتهم "لأنهم يقومون بدور لصالح إسرائيل، وأعداؤهم أعداؤنا."[٢٥] لكن في مقابل ذلك، بات كثيرون من الشيوعيين العرب ملاحقين من طرف الدول العربية وأنظمتها، وفُتحت ضدهم بحسب الشيوعي السابق سميح غنادري، "نيران من اتهامات مُغرضة بالخيانة القومية والوطنية، ولوحقوا من ذوي القربى وجرت محاولات لاغتيال بعضهم" (الشريف ٢٠١٢).

صاغ الشيوعيون موقفهم من الدولة اليهودية وفق الموقف السوفياتي منها، وتغير ذلك الموقف تبعاً لتغيّر مواقف الأخير، مثلما يظهر من تزامن تقلّب موقفهم مع تقلّب العلاقات بين إسرائيل والاتحاد السوفياتي. وظلت مواقف الشيوعيين تترنح حتى وصلت إلى حد التماهي التام مع قيام الدولة، بل إنهم اعتبروا قيامها نتاج نضال جماهير نجحت في الوقوف في وجه المؤامرات والإمبريالية. وفي هذا السياق، يشكل خطاب توفيق طوبي في سنة ١٩٤٩، ومن منبر الكنيست، مدخلاً مهماً لمقاربة الموقف الذي حمله الحزب الشيوعي من المسألة القومية:

> إن إقامة دولة إسرائيل ووقوفها أمام مؤامرات وتدخلات إمبريالية، كانت ممكنة من خلال مقاومة جماهير الشعب في إسرائيل وحربها للاستقلال والحرية، ونتيجة الدعم من جميع الجهات التي حصلت عليها هذه القوات المحاربة من القوى الديمقراطية في العالم، وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي الديمقراطي الشعبي [....]. إن محاولات الإمبريالية إفشال قرار الأمم المتحدة في ٢٩ تشرين الثاني [نوفمبر] ١٩٤٧، بشأن إقامة دولتين مستقلتين في أرض إسرائيل، يهودية وعربية، والهجوم العسكري للإمبريالية من خلال عملائها، الحكام العرب الرجعيين - بهدف منع قيام دولة إسرائيل - كل ذلك كان في آن واحد موجهاً أيضاً ضد مصالح الشعوب العربية في أرض إسرائيل وفي البلاد العربية؛ ضد إقامة دولة مستقلة وديمقراطية للشعب العربي في أرض إسرائيل (يعقوبسون ٢٠١٢).[٢٦]

تكمن أهمية خطاب طوبي من منبر الكنيست وما

يحمله، ليس فقط فيما يصرح به؛ بل فيما يهمّشه ويخفيه من خلال لغته الخطابية، أي في حقل الخيارات السياسية والتحالفات التي يفتحها، وتلك التي يغلقها على حد سواء، في تلك اللحظة السياسية الحاسمة. فهو يعمل أولاً، من خلال إظهار إقامة دولة إسرائيل كأنها قصة نجاح وتتويج لنضال جماهير الشعب وأصدقائه، على تسويغ الضرر الذي لحق بسكان البلد الأصليين من تهجير وتشريد باعتباره أمراً هامشياً، أو نتاجاً لمؤامرة قوى خارجية. إن ما يقوم به هذا الخطاب هو تحديد الأعداء (الإمبريالية والرجعية العربية) في مقابل الأصدقاء (الاتحاد السوفياتي والقوى الديمقراطية في العالم)، الأمر الذي يعني أن الحزب الشيوعي سيعمل بالتوافق مع الدولة ما دامت مستمرة في خريطة تحالفها مع القوى الديمقراطية.

وهيمن على خطاب الشيوعيين العرب حتى سنة ١٩٥٢، خطاب سياسي إسرائيلي المزاج والطابع، أكان ذلك من خلال الخطابات التي ألقاها أعضاء الحزب من منبر الكنيست، أو من خلال منشوراته، بما في ذلك صحيفة الاتحاد في تلك الفترة. فمثلاً، كان الحزب يطلق على "المعبروت" اسم "مخيمات اللاجئين"، ويقيم التظاهرات من أجل تحسين الوضع المعيشي لـ "اللاجئين" اليهود. بمعنى آخر، كان الحزب قد مَوْقَعَ نفسه في الخريطة الإسرائيلية، وإن كان يناكفها ويعارض سياساتها وينظّم التظاهرات لمعارضة السياسات الـ "ظالمة" للدولة، وهو ما يمكن تلخيصه بما صرح به طوبي (الذي كان حينها عضواً في الكنيست عن الحزب الشيوعي) خلال مقابلة أجرتها معه جريدة "معاريف"، في ١١ شباط/فبراير ١٩٤٩، بشأن شعوره تجاه كونه عضواً في الكنيست الإسرائيلي، قائلاً: "في الحقيقة ليس لديّ مشاعر خاصة... أنا أدخل الكنيست بشعور مواطن إسرائيلي، كنيست دولة إسرائيل التي دعمتُ قيامها دائماً وأبداً، وفقاً لقرار الأمم المتحدة"، وأضاف: "إن (بقاء) دولة إسرائيل ديمقراطية وغير مرتبطة بأي تدخلات أجنبية هي المصلحة المشتركة للأكثرية اليهودية والأقلية العربية... سأستخدم هذا الصرح العالي لأحارب من أجل حقوق الشعب عامة، وطبقة العمال خاصة، يهوداً وعرباً. وبصفتي عربياً أجد أن من واجبي أن أحارب بكل ما أوتيت من قوة من أجل تحسين ورفع مستوى حياة السكان العرب في دولة إسرائيل وفي المناطق التي تقع تحت سيطرة الجيش الإسرائيلي. سأحارب كل بادرة فاشية ورجعية، سأحارب كل سياسة تمييز بين الأعراق والطبقات."

وكان من نتائج هذا التماهي أن دعم الحزب سياسات صهيونية؛ فقد أيد خلال الفترة ١٩٤٨–١٩٥٠ الهجرة اليهودية، واعتبرها "حاجة وجودية لإسرائيل"، كما أنه بأعضائه الأربعة صوّت لمصلحة قانون "العودة" الإسرائيلي (يعقوبسون وروبنشطاين ٢٠٠٣، ص ٢٥٧–٢٦١)، فضلاً عن مطالبه بتجنيد العرب في صفوف الجيش الإسرائيلي، الأمر الذي رفضته الدولة. ورفع الشيوعيون العرب أيضاً علم إسرائيل في احتفالاتهم، وأنشدوا النشيد القومي "هتيكفاه" في مؤتمراتهم، بمعنى أن قرارهم تعدى الموافقة على التقسيم بصفته شراً لا بد منه، إلى التماهي مع الدولة واعتبار أنفسهم شركاء في صنعها، وسط إزاحة مستمرة للمعاني الطبقية والشيوعية والماركسية كي تتواءم مع واقع استعماري يشكل نقيضها.

• نهاية التماهي: "إن كان هناك حاجة إلى أن نطلق النار فسنطلقها"

لم تكن علاقة تماهي الحزب بالدولة الوليدة غير مشروطة، وإنما كانت مرتبطة، بشكل عضوي، بموقف الدولة من الاتحاد السوفياتي، ومن موقعها في معادلة الصراع في ظل الحرب الباردة بين الكتلة الغربية والكتلة الشرقية. من هنا بدأت حالة التماهي تختل سريعاً مع حسم بن ـ غوريون انحياز إسرائيل إلى جانب الموقف الأميركي، وهو ما أُعلن عملياً في حرب

الكوريتين (١٩٥٠–١٩٥٣)؛ ففي تلك الفترة التي كانت تسود مخاوف من اندلاع حرب عالمية ثالثة، أجرى حزب "مباي"، بقيادة بن ـ غوريون، نقاشات موسعة بعنوان: "موقعنا في حرب عالمية ثالثة"، وكتب بن ـ غوريون آنذاك: "ممّا لا شك فيه أن ستالين ينوي إبادة يهود الاتحاد السوفياتي وتابعاتها،[٢٧] والذين لا يمكن في رأيه التأكد من وفائهم" (نكديمون ٢٠١١).

وفي ظل وقوف بن ـ غوريون إلى جانب ما اعتبره الحزب "القوى الإمبريالية"، خبت مرحلة التماهي بين الدولة والحزب حتى وصلت إلى نهايتها في شباط/فبراير ١٩٥٣، وجاءت هذه النهاية، بالتحديد، على خلفية موقف الحزب إزاء ما يُعرف في التاريخ الإسرائيلي بـ "محاكمة الأطباء اليهود في موسكو"، والتي تم خلالها اتهام ستة أطباء يهود، من أصل تسعة، بالتآمر على قتل قيادات عسكرية في الاتحاد السوفياتي. فقد وقف الشيوعيون في إسرائيل في هذه القضية موقفاً "مناصراً تماماً" للموقف السوفياتي، الأمر الذي جعل بن ـ غوريون، بحسب الصحافي الإسرائيلي المهتم بتاريخ اليشوف شلومو نكديمون، "يستشيط غضباً بعد أن قرأ الخبر في جريدة 'كول هعام' العبرية، والناطقة باسم الحزب الشيوعي." وبحسب نكديمون، فإن بن ـ غوريون علّق على الخبر قائلاً: "سنضحي بأنفسنا إذا سمحنا لهذا الطابور الخامس بأن يستمر في العربدة بين صفوفنا"، وأضاف أيضاً: "ستكون هذه ديمقراطية غبية وانتحارية، إن كانت، ومن خلال مفهوم مغلوط فيه لحرية التعبير والتنظيم، ستسمح لمجموعة المرتدّين والخونة القوميين هؤلاء بأن يعربدوا في الصحافة والاجتماعات والكنيست" (نكديمون ٢٠١١).

بناء على ذلك، يمكن الاستنتاج أن الطلاق لم يكن متعلقاً، لا من قريب ولا من بعيد، بالشعب الفلسطيني ولا بقضاياه، وإنما بتبنّي الحزب مواقف دولة خارجية، وهو ما اعتبره بن ـ غوريون "خيانة"، حتى إنه أشار إلى أن الشيوعيين، عملياً، هم "طابور خامس بين صفوف الدولة." ووصلت الأمور ببن ـ غوريون إلى أن يقول: "إن كان هناك حاجة إلى أن نطلق النار على الشيوعيين فسنطلقها" (نكديمون ٢٠١١).

لكن حالة "الطلاق" تلك فجّرت مساحة جديدة للفعل والنضال ستتحول إلى حاضنة للفعل الثقافي. ومن المهم هنا الإشارة إلى أن هذا التحول حدث أيضاً بسبب ارتباطه بتحولات إقليمية ساهمت في شرخ العلاقة بين الحزب وبين الدولة، أهمها الحرب على سيناء في سنة ١٩٥٦، والتي أظهرت، بوضوح، اصطفاف إسرائيل إلى جانب "الإمبريالية" ضد الاتحاد السوفياتي، وذلك في الوقت الذي تصاعد التقارب بين الرئيس المصري في حينها، جمال عبد الناصر، والاتحاد السوفياتي، وتُوج في سنة ١٩٥٥ بصفقة الأسلحة التشيكية.

• ١٩٥٣ – ١٩٦٥: بروز الشيوعيين الشعراء، وإعادة إنتاج فلسطين الوطن

لم يترك العدوان الثلاثي على مصر في سنة ١٩٥٦ أدنى شك في قلوب الشيوعيين في أن إسرائيل اختارت أن تنحاز إلى صف القوى "الإمبريالية"، وأنها تفضّل الوقوف في صف فرنسا وبريطانيا وأميركا (بمعزل عن أنها لم تؤيد الحرب) على أن تتحالف مع الكتلة الشيوعية، وعلى رأسها الاتحاد السوفياتي. وجاء هذا الانحياز الإسرائيلي متزامناً مع تغيرات استراتيجية وبعيدة المدى في مصر، بدأت مع ثورة الضباط الأحرار، وتصاعدت مع علو "نجم" جمال عبد الناصر بصفته قائداً عروبياً يحظى بشعبية طاغية، فضلاً عن التقارب المستمر مع الاتحاد السوفياتي. وجاء العدوان الثلاثي الذي شنّته بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على مصر بعد قرار عبد الناصر تأميم قناة السويس، كي يحدد الخط الفاصل والنهائي بين معسكر "أصدقاء الشعوب"، ومعسكر "أعداء الشعوب" الذي انضمت إليه إسرائيل بتفضيلها الانحياز إلى "الإمبريالية"

التقليدية، ممثلة في بريطانيا وفرنسا.[٢٨]

لكن الحدث الذي سيشكل عملياً نقطة اللاعودة، هو مجزرة كفر قاسم التي ارتكبتها القوات الإسرائيلية خلال فترة العدوان، وذلك في ظل محاولات التكتم عليها من طرف قيادات الدولة. وكان أول الكاشفين عن هذه المجزرة عضوَي الكنيست عن الحزب الشيوعي، توفيق طوبي ومئير فيلنر، اللذين استفادا من حصانتهما البرلمانية للدخول إلى القرية والاستماع إلى شهادات الناجين. فقد عززت المجزرة الشعور بأن الدولة ـ وقد تمأسست ـ تستهدف الفلسطينيين في داخلها، وأنها ليست معدّة لتكون دولة ديمقراطية، مثلما صرحت في مناسبات متعددة، وكما راهنت بعض قيادات الحزب سابقاً.

وسط هذا السياق المشحون، بدأ يبرز في صفوف بعض المثقفين في الحزب خطاب ثقافي مختلف إلى حد التناقض مع الخطاب السياسي الرسمي، وقد شكلت الكتابة الشعرية أداته الأهم، وكان روّاده المركزيون من الجيل الشاب اليافع الذي تم استقطابه إلى صفوف الحزب بعد إقامة إسرائيل.

فعلى العكس من الخطاب الرسمي الذي هيمن منذ إقامة إسرائيل حتى بدايات الخمسينيات، واتخذ من الدولة مشروعاً ومحور عمل، تميز هذا الخطاب بتمحوره حول الوطن وقيم البقاء والصمود، وبإعادة صوغ العلاقة مع الآخر عبر ثنائيات المستعمِر والمستعمَر، والأصلاني المتجذر في مقابل المحتل العابر. وتكمن أهمية هذا الخطاب في رياديته فلسطينياً في تشكيل وإنتاج الحاضنة الرمزية للمقاومة الفلسطينية، وفي بناء هوية جمعية بعد نكبة ١٩٤٨ وما تبعها من تشتت وتذرّر فلسطيني. ومن الملاحظ أن الشعر الذي أُنتج في فلسطين بعد النكبة، وفي ظل الحكم العسكري، كان يشكل مصدراً للتماهي بين الفلسطينيين كلهم، وخصوصاً في الشتات، لأنه ركّز، إلى حد كبير، على الأرض والعلاقة بالمكان والصمود والبقاء، وهي قيم مشتركة مع اللاجئين الذين شكلت تجربتهم الصورة السالبة لذلك، الأمر الذي جعل عملياً من شعر محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زيّاد، وسالم جبران، وحنا أبو حنا، شعراً فلسطينياً شاملاً وليس محلياً. لكن ذلك لا يعني، طبعاً، عدم وجود ملامح مميزة للخطاب تعكس التجربة الذاتية للمواجهة في الداخل، وخصوصاً عبر تكرار الحديث عن البقاء والصمود ومقاومة سياسات الاقتلاع والمصادرة والتهجير.

هذا الخطاب الشعري الوطني الذي تفتّح في دفيئة الحزب الشيوعي، والمهموم بالقضية الجمعية لفلسطين وأبنائها، أخذ يتحول بالتدريج إلى الخطاب المهيمن على الأغلبية العربية في الحزب، وكان يتزايد قوة مع تزايد صعود نجم الشعراء الشباب المنشغلين بقضايا شعبهم وهمومه، توازياً مع وجود تراجع، بحدود معينة، في الخوف على المصير من ممارسات السلطات الإسرائيلية ومن مواجهة مصير اللاجئين.

وفي هذا الإطار، جاءت الصدامات التي اندلعت في ٣٠ نيسان/أبريل ١٩٥٨ في الناصرة لتعكس تزايد قوة التيار القومي على حساب نكوص الخطاب المدني ـ المواطناتي. ففي ذلك اليوم ـ ومثلما نشرت صحيفة "معاريف" العبرية في ٣٠ أبريل/نيسان ١٩٥٨ ـ بثّ أعضاء الحزب "الأغاني القومية، وخطابات التحريض ضد سياسات التمييز ضد العرب، ونادوا أعضاء الحزب إلى النزول والتظاهر في شوارع الناصرة"،[٢٩] على حد تعبير الصحيفة، وقد تطورت التظاهرات إلى مواجهات شديدة بين المتظاهرين والشرطة، قبيل الاحتفالات بالاستقلال العاشر لإسرائيل التي نظمتها البلدية، وأدت إلى اعتقال عدد من ناشطي الحزب وقياداته، بينهم إميل حبيبي وصليبا خميس. وشكلت هذه المواجهة تجسيداً لعودة التيار القومي للـهيمنة على الأعضاء العرب في الحزب الذي تحول إلى رأس الحربة المتصدية للتيارات المتعاونة، والمخاتير المدعومين من الدولة، ممّن أُطلق عليهم "أذناب السلطة".

وللمقارنة بين الخطاب السياسي الحزبي الرسمي الذي هيمن في بدايات قيام الدولة، ثم بدأ يتراجع بالتدريج ليرتفع مكانه خطاب ذو بعد قومي، وبين الخطاب الثقافي، سأتناول دور الشعراء المناقض عملياً لدور القيادة الحزبية الرسمية في إعادة بناء الهوية الفلسطينية، وإعادة صوغ العلاقة بالمسألة القومية، وذلك من خلال عرض مختصر لخطابهم فيما يتعلق بالنكبة وإقامة إسرائيل، وصورة الآخر والعلاقة مع الأرض منذ سنة ١٩٥٦ حتى سنة ١٩٦٥، والذي دفع، مع تصاعده، نحو الانقسام في سنة ١٩٦٥ على أساس قومي، بين تيار ذي أغلبية عربية يقوده توفيق طوبي ومئير فيلنر، وتيار ذي أغلبية يهودية يقوده شموئيل ميكونيس وموشيه سنيه.

● النكبة، الآخر والأرض

تُظهر متابعة الكتابات الأدبية عامة، والشعرية خاصة، التي أنتجها مثقفو الحزب الشيوعي، هيمنة المفردات القومية على كتابتهم، ومفهمتهم للآخر على أساس ثنائيات المستعمِر والمستعمَر، والخير والشر، وتفيض بالمشاعر الجياشة تجاه الأرض والوطن، وبالدعوة إلى التحرير والمقاومة. فإذا أخذنا، على سبيل المثال لا الحصر، قصيدة "القصيدة الناقصة" لسميح القاسم، والتي نشرها في مجموعته الثانية "أغاني الدروب"، سنجد وصفاً للدمار الذي حل بالوطن في سنة ١٩٤٨ بسبب إقامة دولة إسرائيل على أراضيه، وهو يرمز إليه بلغة مجدولة بثنائيات الخير والشر، ولا سيما حين يقول:

شرذمة من الصلال... تسرّبت تحت خباء ليل
إلى عشاش دوحها في ملتقى الدروب
أبوابها مشرعة لكل طارق غريب
وسورها أزاهر وظل
وفي جنان طالما مر بها إله
تفجّرت على السلام زوبعة
هدّت عشاش سربنا الوديع
وهشمت حديقة ما جددت سدوم
ولا أعادت عار روما الأسود القديم
(سميح القاسم ١٩٦٤، ص ٢٥)

في هذا الوصف، يستدعي القاسم الوطن قبل النكبة بصفته صنواً للوداعة، مفتوحاً للغرباء، وآمناً تماماً كفردوس آدم الأول، إلى أن تتسرب شرذمة من الصلال إلى المكان، وتتفجر زوبعة تحيل الفردوس إلى خرائب ودمار. وبينما يحيل توصيف الوطن بـ "العشاش" المشرعة إلى البراءة والسذاجة الطفولية التي تسِم جميع العلاقات الحميمة في الفردوس الأصلي، فإن توصيف دخول "العدو" (إشارة إلى الهجرة اليهودية إلى فلسطين) على أنه فعل "تسرب"، يحيل إلى سلوك المستعمر المراوغ والمضلل، والذي قام من خلاله باستغلال "وداعة" الضحية كي يتسرب إلى حياتها، ليكون المستعمر بذلك عملياً صنو الشيطان الذي أسقط بمكره البشرية من الفردوس السماوي إلى الأرض المدنسة.

لقد دمجت كتابات الشعراء بين الحزن والغضب على الوطن المنكوب، وبين الحديث عن حتمية الخروج من واقع الهزيمة، الأمر الذي يعني أن كتابتهم لم تكن بكاء على الأطلال فحسب، بل تحريضاً على الخروج منه أيضاً، وإيماناً بحتمية الولادة من جديد. هكذا، مثلاً، يكتب درويش في قصيدته "ولادة":

إن قصفت عاصفة
في تشرين..
ثالثهم
فجذور التين
راسخة في الصخر.. وفي الطين
تعطيك غصوناً أُخرى..
وغصون!
(درويش ١٩٨٨، ص ٩٧).

لا بد هنا من الإشارة إلى أن تصويرة (motif) "الجذري" شكلت إحدى التصويرات المشكّلة للـهوية الفلسطينية، بصفتها هوية أصلانية، إذ يدلل الجذر على التجذر في المكان، والعلاقة المجدولة، فوق الزمنية، بالأرض، في مقابل العواصف العابرة والطارئة التي تشير عملياً إلى الغزاة (غانم ٢٠٠٩). وتظهر تلك الاستعارات جلية في قصيدة درويش "بطاقة هوية"، حين ينشد في أحد مقاطعها:

جذوري..
قبل ميلاد الزمان رست
وقبل تفتُّح الحقب
وقبل السرو والزيتون
وقبل ترعرع العشب
(درويش ١٩٨٨، ص ٧٤–٧٥).

وفي استحضار الجذر وتحويله عملياً إلى حضور فوق تاريخي ـ قبل ميلاد الزمان رست، وقبل تفتح الحقب ـ يعيد درويش صوغ العلاقة بين الزمن ـ التاريخ والفلسطيني، ويحوّل هذه العلاقة إلى فوق زمنية، ليردّ بذلك على خطاب المستعمر الذي عمل على تحويل الزمن السماوي إلى زمن أرضي، وعلى ادعائه بأنه "عائد من المنفى إلى وطنه" الذي يقول أنه عاش فيه وفق أسطورته قبل ألفي عام، ويبني عملياً شرعية مشروعه الاستعماري عليه. ومن خلال ردّه ذاك، يسخر درويش من ادعاء المستعمر ويتحداه، وهو يفعل ذلك من خلال لغة المكان ـ الأرض، عبر تصوّر العلاقة الحميمة والمباشرة مع الأرض، والتي لا تتوسطها أساطير العودة من المنافي، ولا تشكل أداة لإعادة بناء جسد اليهودي الجديد كما نظّر لها المستعمر، وإنما علاقة عضوية متشابكة بحياة الفلسطيني اليومية. وفي ذلك، يمضي درويش بالقول:

أبي من أسرة المحراث
لا من سادة نجب
وجدي كان فلاحاً
بلا حسب ولا نسب..
يعلمني شموخ الشمس قبل قراءة الكتب
وبيتي، كوخُ ناطورٍ
من الأعواد والقصب..
فهل ترضيك منزلتي؟
أنا اسم بلا لقب!

خطاب المثقف الشاعر، على عكس المثقف ـ السياسي، كان خطابا أصلانياً مفرداته الجذر والأرض، وسياقه العلاقة الحميمة بين الوطن والساكن الأصلاني، في مقابل العلاقة المصطنعة للغريب. وحين يتحدث هذا المثقف عن حضور الآخر، فهو يرمز إلى "إخلال" تتم مقاومته عبر التشبث بالجذر الذي يصوَّر في الشعر باعتباره حصن المقاومة ومعقلها، لأنه، بحكم طبيعته، قادر على التشبث والضرب عميقاً في الأرض، كما كتب الشاعر الشيوعي توفيق زيّاد في قصيدته "هنا باقون" (زيّاد ٢٠٠٠):[٣٠] يا جذرنا الحي تشبث/ واضربي في القاع يا أصول.

إذاً، يتربع الجذر على محور الزمن بلا خوف، واثقاً من ديمومته المستمدة من قدرته على التجدد المستمر. وهو يواجه الحالة العابرة والموقتة للعاصفة التي تدمر وتخرب، فهي ستنتهي إلى زوال، وهي حتى إن عاودت الظهور، فإن ظهورها متقطع واعتباطي. يكتب توفيق زيّاد: "وطني مهما نسوا/ مرّ عليه/ ألف فاتح/ ثم ذابوا.. مثلما الثلج يذوب" (زيّاد ٢٠٠٠).

بناء على ما سبق، يمكن أن نلخص في الجدول التالي، التمايز بين الخطاب الرسمي الحزبي، والذي مثّله على أفضل وجه، توفيق طوبي في الأعوام الأولى لإقامة إسرائيل، وبين الخطاب الثقافي الذي أنتجه "شعراء المقاومة" الذين تصاعد دورهم بالتدريج بعد مجزرة كفر قاسم، والذي ما لبث أن هيمن بصورة متدرجة على الخطاب الثقافي والسياسي للحزب.

	السياسي	المثقف ـ الشاعر
محور الخطاب	الدولة	الوطن
إقامة إسرائيل	بداية حل	نكبة
العلاقة مع الدولة	حوارية (حتى لو كانت تصادمية)	قطيعة رمزية
الهجرة اليهودية	حاجة يمكن قبولها	فعل استعماري
اللاجئون	ضحايا الرجعية	ضحايا الصهيونية
محور النضال	المساواة	البقاء والصمود
أدوات النضال	الفعل السياسي؛ الكنيست والأحزاب	تحريضي على المقاومة بأشكالها كافة
الآخر	شريك في النضال	مستعمر ومحتل
الهوية	إسرائيلي ـ عربي	ابن البلد (عربي ـ فلسطيني)
المستقبل	إسرائيل دولة متساوية	فلسطين وطن محرر
الصراع	بين الرجعية والتقدمية	بين المستعمِر والمستعمَر
الجمهور المستهدف	العرب واليهود في الدولة	العالم العربي عامة، والفلسطيني خاصة

III ـ خاتمة

سنة ١٩٦٥، الانقسام الحتمي

في ٨ كانون الأول/ديسمبر ١٩٦٤، قُتل أبراهام جوري في كيبوتس "ياد حنة"، وهو جندي في العشرين من عمره من وحدة "الناحال"،[٣١] في إثر عملية إطلاق نار من طرف القوة الأردنية الموجودة في الجانب الآخر من الخط الأخضر (مرحاف ٢٠١١)، كما تذكر المصادر الإسرائيلية. وكان للأمر أهمية خاصة في تاريخ الحزب الشيوعي، وذلك لسبب مهم هو أن هذا الجندي كان محسوباً على ناشطي حركة الشبيبة الشيوعية (معاريف ١٩٦٤)،[٣٢] ومن سكان كيبوتس "ياد حنة" الذي أقيم في سنة ١٩٥٠، وكان حينها الكيبوتس الوحيد التابع للحزب الشيوعي، وقد انتمى أغلب أعضائه إلى فكر الحزب.[٣٣]

أظهرت تلك القضية جميع التناقضات المرتبطة بالعامل القومي والاستعماري التي كان الحزب يحملها كلها في سلّته، ويحاول أن يناور بينها؛ فقد نُظمت لجوري، الجندي الشيوعي المقتول بأيد عربية، جنازة عسكرية، ودُفن بين صفوف الجنود الذين قُتلوا بسبب الصراع القومي في "دفاعهم" عن إسرائيل. كان الحضور متنافراً بشكل لافت، فقد ضم من جهة، جنود "الناحال" وهم بكامل لباسهم العسكري، ومن جهة أُخرى رفاقاً عرباً من الحزب الشيوعي. وفي الجنازة، أطلقت الوحدة العسكرية ثلاث دفعات من النيران، في حين أنشد بعض الشبان اليهود النشيد القومي الصهيوني "هاتيكفاه"، وفي المقابل، أنشد بعض "الرفاق" نشيد الأممية الشيوعية.

لكن الأهم هو ما كشفته بعد تلك الحادثة صحيفة "معاريف"، وهو أن وحدة "الناحال" التي تمركزت في "ياد حنة" أقيمت نتيجة اتفاق بين عضو الكنيست عن "ماكي"، موشيه سنيه،

وبين نائب وزير الأمن آنذاك، شمعون بيرس، وكان هدفها تنظيم الخدمة العسكرية لأعضاء حركة الشبيبة الشيوعية. وقد وُقّع الاتفاق المذكور في سنة ١٩٦١، وتم تطبيقه بعد عام من توقيعه (مرحاف ٢٠١١)،[٣٤] الأمر الذي زاد في الفجوة بين التيارَين العربي واليهودي.

وما بين تصاعد الخطاب القومي في أوساط الأعضاء العرب، واندماج الأعضاء اليهود، بأغلبيتهم، في منظومة الدولة عبر التجند للجيش من جهة، وفي ظل تصاعد قوة القومية العربية التي مثّلها جمال عبد الناصر من جهة ثانية، وفي مقابل استمرار سياسات القمع والتمييز والعدوانية الإسرائيلية المتمثلة في عمليات الانتقام التي انتشرت في الخمسينيات وبدايات الستينيات من جهة ثالثة، أصبح الانقسام في الحزب مجدداً على خلفية المسألة القومية غير قابل للتفادي.

وفي ٢٣ حزيران/يونيو ١٩٦٤، انشقّ الحزب مجدداً على أساس قومي، بعد أن استحال التغاضي عن هذا الصدع القومي أو تجاوزه. وفي هذا السياق، أنشأت الأغلبية العربية من أعضاء الحزب، بقيادة طوبي وفيلنر، حزب "راكح"، بينما احتفظت الأغلبية اليهودية، بقيادة سنيه وميكونيس، باسم الحزب "ماكي"، علماً بأن تيارها ضم أكثر من نصف أعضاء الحزب. والمهم أن الحزب الشيوعي الذي أصبح نظيراً لـ "راكح" بعد التبخر المتدرج لتيار ميكونيس، صار صنواً في الثقافة السياسية الإسرائيلية لحزب عربي، على الرغم من محاولات عرضه كحزب يهودي ـ عربي. ■

المصادر

١ **توفيق زيّاد (١٩٢٩ ـ ١٩٩٤): شاعر وكاتب وسياسي فلسطيني من مدينة الناصرة التي شغل رئاستها حتى وفاته. كان عضواً في الكنيست الإسرائيلي لعدة دورات انتخابية عن الحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكح). للمزيد انظر الصفحة الرسمية عن زيّاد في الرابط الإلكتروني التالي:**
http://www.zayyad.com/art.php?ID=104&PHPSESSID=e7ea3b377a8a84c3825b69fee203dd93

٢ **مئير فيلنر (١٩١٨–٢٠٠٣) من أبرز قيادات الحزب الشيوعي الإسرائيلي. هاجر من بولندا إلى فلسطين في سنة ١٩٣٨، وانضم إلى الحزب الشيوعي الفلسطيني في سنة ١٩٤٠. وفي سنة ١٩٤٨، كان نائباً عن الحزب الشيوعي في البرلمان التأسيسي لإسرائيل، وبقي نائباً منذ ذلك الحين حتى سنة ١٩٩٠. تولى فيلنر منصب السكرتير العام للحزب الشيوعي الإسرائيلي (راكح) في سنة ١٩٦٧. والاقتباس مأخوذ من خطاب فيلنر أمام المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الإسرائيلي (حيفا: اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الإسرائيلي، ١٩٧٦)، ص ٦٤–٦٥.**

٣ **سيظهر من خلال هذه الدراسة أنه لا يمكن حصر الشيوعيين في تشكيلة حزبية متماسكة ذات تاريخ موحد، بل إن أهم ما سنخلص إليه هو أن الحزب ذو تواريخ متعددة متناقضة ومتوترة إثنياً وقومياً. وعندما أقول "حزب شيوعي" فإنني أقصد، بالتحديد، التشكلات السياسية التي تفرعت من الحزب الشيوعي الذي تأسس في فلسطين في سنة ١٩١٩، والتي بقيت تتحرك في دائرة المزاج الخطابي "الماركسي" الشيوعي، وإن اختلفت إلى درجة الانشقاق في المسائل القومية، لكن الأهم أن هذه التشكلات عادت لتشكل من جديد جزءاً من الحزب الشيوعي الإسرائيلي بعد سنة ١٩٤٨. ويندرج في هذا الإطار الحزب الشيوعي الفلسطيني قبل سنة ١٩٤٨، وعصبة التحرر، ثم الحزب الشيوعي الإسرائيلي.**

٤ للمزيد انظر النسخة العربية لوثيقة الاستقلال الإسرائيلية في الرابط الإلكتروني التالي:
https://tinyurl.com/ydyrt3qs

٥ الكومنترن: تحالف بين الأحزاب الشيوعية العالمية أنشأه فلاديمير لينين في سنة ١٩١٩، من أجل التنسيق بين نشاطات الحركة الشيوعية في العالم، ولنشر الثورة العالمية عن طريق الأحزاب الشيوعية في كل دولة، وقد بعثت الجماعات الشيوعية من مختلف الدول مندوبين عنها لحضور المؤتمرات التي عُقدت في مدينة موسكو. حلّ ستالين الكومنترن في سنة ١٩٤٣، دليلاً على الصداقة والنيات الطيبة تجاه حلفائه في الحرب العالمية الثانية، لكنه في سنة ١٩٤٧، أنشأ الكومنفورم كمؤسسة بديلة من أجل تنظيم العلاقات بين الأحزاب الشيوعية.

٦ بعض الباحثين يشير إلى أنه كان أول عربي ينتسب إلى الحزب الشيوعي في فلسطين، انظر: محمد سليمان، "مجلة حيفا، ١٩٢٤ – ١٩٢٥: أول صحيفة يسارية عربية" (رام الله: شبكة أمين الإعلامية، ط ١، ٢٠١١).

٧ الأخطاء اللغوية موجودة في الأصل، واخترت الإبقاء عليها كما هي.

٨ الأخطاء اللغوية في المصدر.

٩ تعود فكرة التقسيم في بدايتها إلى تقرير لجنة بيل في سنة ١٩٣٧. وقد جاء في تقريرها المؤرخ في ١٩٣٧/٧/٧: "ما دام العرب يعتبرون اليهود غزاة دخلاء، وما دام اليهود يرمون إلى التوسع على حساب العرب، فالحل الوحيد هو الفصل بين الشعبين، فتؤلف دولة يهودية في الأراضي التي يكون اليهود أكثرية سكانها، ودولة عربية في المناطق الأُخرى." وتكررت فكرة التقسيم مرة ثانية، لكن في صورة مغايرة: في أثناء مؤتمر لندن الذي عُقد من ١٩٤٦/٩/١٠ إلى ١٩٤٦/١٠/٢، ثم في قرار التقسيم رقم ١٨١. انظر "الموسوعة الفلسطينية"، في الرابط الإلكتروني التالي:
https://tinyurl.com/ycp54zeh

١٠ نص مذكرة عصبة التحرر التي أُرسلت إلى أتلي، متوفر في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.palestinapedia.net/%D8%A7%D9%84%D8%AA%D8%AD%D8%B1%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%88%D8%B7%D9%86%D9%8A-%D8%B9%D8%B5%D8%A8%D8%A9/

١١ المصدر نفسه.

١٢ وثيقة: إميل توما ـ دور عصبة التحرر الوطني في المجتمع العربي ـ ١٩٤٧، في الرابط الإلكتروني التالي:
https://goo.gl/Ct5K5r

١٣ المقابلة الأصلية موجودة في موقع you tube، في الرابط الإلكتروني التالي:
https://www.youtube.com/watch?v=VIAVBDHfdhc

١٤ انظر: ماهر الشريف، "عصبة التحرر الوطني في فلسطين (١٩٤٣–١٩٤٨): تجربة تنظيم شيوعي فريد"، نص محاضرة أُلقيت في المؤتمر العلمي الدولي الذي نظمه المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، بعنوان: "التوتاليتارية الأوروبية في مرآة الفكر العربي"، ما بين ٦ و٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠، ويمكن الوصول إليها عبر موقع "حزب الشعب الوطني"، في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.ppp.ps/ar_page.php?id=c3b619y12826137Yc3b619

١٥ خطاب غروميكو في الأمم المتحدة، في ١٤ مايو/أيار ١٩٤٧، والذي عبّر فيه عن دعم تقسيم فلسطين.

١٦ كتب لينين: "والدليل الواضح على خداع جماهير شغيلة الأمة المضطهدة بالجهود المشتركة لإمبريالية دول الوفاق وبورجوازية هذه الأمة، يتجلى في عملية الصهاينة بشأن فلسطين، كما يتجلى في الصهيونية عموماً، والتي تقدم إلى الاستغلال البريطاني، بحجة تأسيس دولة يهودية في فلسطين،

قرباناً هو السكان العرب الكادحون في فلسطين، حيث يشكل الشغيلة اليهود مجرد أقلية ضئيلة". انظر الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=87786&r=0

١٧ لمزيد من موقف الاتحاد السوفياتي من الصهيونية وتبدّله، انظر: داود تلحمي، "عودة إلى خلفيات تغيّر موقف الاتحاد السوفييتي من المشروع الصهيوني في فلسطين في أواخر الأربعينيات الماضية"، "الحوار المتمدن"، العدد ٣٧٠٨ (٢٠١٢/٤/٢٥)، في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=304840

١٨ "القائد والمؤرخ د. إميل توما"، في الصفحة الإلكترونية لـ "حزب الشعب الفلسطيني"، في الرابط التالي:
http://www.ppp.ps/ar_page.php?id=a984cey11109582Ya984ce

١٩ "أرشيف الحزب الشيوعي"، المكتبة الوطنية، الجامعة العبرية.

٢٠ "القائد والمؤرخ د. اميل توما"، مصدر سبق ذكره.

٢١ "الدولة تهتم بالأقليات"، "معاريف"، ١٩٤٨/١٠/٧، في الرابط الإلكتروني التالي:
http://jpress.org.il/Olive/APA/NLI_Heb/SharedView.Article.aspx?parm=2t2%2BTDO6%2BnZuE7rRbBwsREc%2B8fvTu6ZQMZubkJbRguO%2F3fKIwlIYEyMy3s5P1q3xYw%3D%3D&mode=image&href=MAR%2F1948%2F10%2F07&page=2&rtl=true

٢٢ "عصبة التحرر الوطني تطلب خروج الجيوش العربية، وتنفيذ قرار الأمم المتحدة"، "دافار"، ١٩٤٨/٩/١٥، ص ١

٢٣ ماهر الشريف، "عصبة التحرر الوطني في فلسطين (١٩٤٣-١٩٤٨)..."، مصدر سبق ذكره.

٢٤ محاضرة لعادل مناع عن الحزب الشيوعي عقدها مركز مدى الكرمل في حيفا في ٢٠٠٩/٥/٢٧، ونُشرت مقتطفات منها في موقع "عرب ٤٨"، في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.arabs48.com/?mod=articles&ID=63162

٢٥ المصدر نفسه.

٢٦ ألكس يعقوبسون، "خطاب ليوم النكبة"، "هآرتس" (٢٠١٢/٥/٢٤)، في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.haaretz.co.il/opinions/1.1715238

٢٧ الكلمة التي استخدمها بن ـ غوريون بالعبرية هي "جرورا"، وتعني حرفياً خلايا انبثاثية تُستعمل لوصف خلايا سرطانية تنتقل بالعدوى إلى أماكن جديدة في الجسم.

٢٨ وذلك على الرغم من وجود علاقة متوترة بين النظام الناصري والشيوعيين في مصر، إذ إن شعبية عبد الناصر طغت على أخبار الملاحقة والتضييق التي تعرّض لها هؤلاء.

٢٩ "مواجهات بين الشرطة وأعضاء ماكي في تظاهرة في الناصرة"، "معاريف"، ٣٠ نيسان/أبريل ١٩٥٨، متوفر في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.jpress.nli.org.il/Olive/APA/NLI_heb/Print.Article.aspx?mode=image&href=HRT%2F1958%2F04%2F30&id=Ar00109&rtl=true

٣٠ توفيق زيّاد، "الأعمال الشعرية الكاملة" (بيروت: دار العودة، ٢٠٠٠).

٣١ لواء "ناحال": أحد ألوية ما تسمى "النخب" في جيش الاحتلال الإسرائيلي، ويعني بالعبرية (نوعار حالوتسي لوحيم)، أي "شباب الطليعة المقاتلة"، وهي كتيبة مشاة في الجيش الإسرائيلي. وهذا الاسم يشير تاريخياً، إلى برنامج يجمع بين الخدمة العسكرية وإنشاء مستعمرات زراعية جديدة، ويكون ذلك عادة في مناطق "نائية". وقد نتج من البرنامج لاحقاً مشاريع تطوع ورفاه اجتماعي.

٣٢ "مقتل عضو الناحال، وإصابة صديقه بجروح خطرة من نيران أردنية"، "معاريف"، ١٩٦٤/١٢/٩. ويمكن الوصول إلى النص عبر الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.jpress.nli.org.il/Olive/APA/NLI_heb/Print.Article.aspx?mode=image&href=HRT%2F1964%2F12%2F09&id=Ar00100&rtl=true

٣٣ عن كيبوتس "ياد حنة"، انظر الموقع الإلكتروني العبري في الرابط التالي:
http://www.homee.co.il/%D7%99%D7%93-%D7%97%D7%A0%D7%94/

٣٤ المصدر نفسه.

المراجع

بالعربية

- البديري، موسى. "تأملات في تاريخ مكتوم: الحزب الشيوعي الفلسطيني والأممية". "مجلة الدراسات الفلسطينية"، العدد ٩٢ (خريف ٢٠١٢)، ص ٦٩–٧٨.
- بشير، سليمان. "المشرق العربي في النظرية والممارسة الشيوعية، ١٩١٨–١٩٢٨". القدس: مطبعة الشرق التعاونية، ١٩٧٧.
- تلحمي، داود. "عودة إلى خلفيات تغيّر موقف الاتحاد السوفييتي من المشروع الصهيوني في فلسطين في أواخر الأربعينيات الماضية". "الحوار المتمدن"، العدد ٣٧٠٨ (٢٠١٢/٤/٢٥)، في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=304840
- حجازين، إبراهيم. "مدخل جديد لدراسة تاريخ عصبة التحرر الوطني في فلسطين" (الحلقة الأولى، ٢٠٠٦/١٢/١٢). موقع "الحوار المتمدن"، في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=83181
- حسين، راشد. "حين يجوع التاريخ". "الفجر"، العدد ١٢ (تشرين الأول/أكتوبر ١٩٥٩). ويمكن الرجوع إلى المقالة إلكترونياً في موقع "دنيا الوطن"، في الرابط التالي:
https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2006/09/21/56746.html
- الحواري، رائد. "من تاريخ الحزب الشيوعي الفلسطيني". "مركز الدراسات والأبحاث العلمانية في العالم العربي" (٢٠١٤/١/٢٣)، في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.ssrcaw.org/ar/print.art.asp?aid=397249&ac=1
- خليل، محمد. "إميل توما: ريادة في السياسة وفي النقد". موقع "الجبهة" الإلكتروني (٢٠١٠/١٢/٢٥)، في الرابط التالي: http://www.aljabha.org/index.asp?i=56232
- درويش، محمود. "قصائد". موقع "الديوان" الإلكتروني (١٩٨٨)، في الرابط التالي: http://www.aldiwan.net/poem2284.html
- زيّاد، توفيق. "الأعمال الشعرية الكاملة". بيروت: دار العودة، ٢٠٠٠.
- سعدي، أحمد. "مداخلة في مؤتمر لندن حول الصهيونية والشيوعية". "عرب ٤٨" (٢٠١٠/٣/١٤)، في الرابط الإلكتروني التالي: https://goo.gl/4EkoKg
- سليمان، محمد. "مجلة حيفا، ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥: أول صحيفة يسارية عربية". رام الله: شبكة أمين الإعلامية، ط ١، ٢٠١١.

- الشريف، ماهر. "الأممية الشيوعية وفلسطين (١٩١٩–١٩٢٨)" بيروت: دار ابن خلدون، ١٩٨٠.
- ـــــــ "فلسطين في الأرشيف السرّي للكومنترن". بيروت: دار المدى للثقافة والنشر، ٢٠٠٤.
- ـــــــ "عصبة التحرر الوطني في فلسطين (١٩٤٣–١٩٤٨): تجربة تنظيم شيوعي فريد"، موقع "حزب الشعب الوطني"، في الرابط الإلكتروني التالي:
  http://www.ppp.ps/ar_page.php?id=c3b619y12826137Yc3b619
  وأُلقي هذا النص في المؤتمر العلمي الدولي الذي نظمه المعهد الألماني للأبحاث الشرقية في بيروت، بعنوان: "التوتاليتارية الأوروبية في مرآة الفكر العربي"، ما بين ٦ و٨ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠١٠.
- ـــــــ "من تاريخ الصحافة الشيوعية العربية في فلسطين". (الحلقة الأولى). "الحوار المتمدن" (٢٠١١/٦/١٧)، في الرابط الإلكتروني التالي:
  http://www.m.ahewar.org/s.asp?aid=263578&r=0&cid=0&u=&i=2230&q=
- ـــــــ "من تاريخ الصحافة الشيوعية العربية في فلسطين، ١٩٢٤ – ١٩٣٦". رام الله: مركز فؤاد نصار لدراسات التنمية، ٢٠١٢.
- العارف، عارف. "نكبة فلسطين والفردوس المفقود، ١٩٤٧ – ١٩٥٢". الجزء الأول. كفر قرع: دار الهدى للطباعة والنشر، ١٩٥٦.
- عياش، سعيد. "من الأرشيف: مقابلة مع بن ـ غوريون، برنامج موكيد ١٩٧٠". "قضايا إسرائيلية"، العدد ٦٣ (٢٠١٦)، ص ١٤١–١٤٦.
- فرح، بولس. "من العثمانية إلى الدولة العبرية". الناصرة: الصوت، ١٩٨٥.
- القاسم، سميح. "أغاني الدروب". الناصرة: مطبعة الحكيم، ١٩٦٤.
- كرزم، جورج. "الحزب الشيوعي الإسرائيلي بين التناقض والممارسة، ١٩٤٨–١٩٩١". القدس: منشورات الشعلة، ١٩٩٣.

بالإنجليزية

- **Budeiri, Musa. *The Palestine Communist Party, 1919-1948: Arab and Jew in the Struggle for Internationalism*. London: Ithaca Press, 1979.**
- **Sayegh, Fayez. "Zionist Colonialism in Palestine (1965)". *Settler Colonial Studies,* vol. 2 issue 1 (2012), pp. 206-225.**
- **Veracini, Lorenzo. *Settler Colonialism: A Theoretical Overview.* United Kingdom: Palgrave Macmillan, 2010.**
- **Wolfe, Patrick. *Settler Colonialism and the Transformation of Anthropology: The Politics and Poetics of an Ethnographic Event.* London: Cassell, 1999.**
- **_____ "Settler colonialism and the Elimination of the Native". *Journal of Genocide Research,* vol. 8, no. 4 (December 2006), pp. 387–409.**

بالعبرية

- غانم، هنيدة. "إعادة بناء الأمة". القدس: ماغنس، ٢٠٠٩.
- مرحاف، دافيد. "أبراهام جوري: بين حقول ياد حنة وطرقات جنين ـ لذكرى أبراهام جوري". "مكور

ريشون" (٢٠١١/٤/٢٩). وهو متوفر أيضا في صفحة مرحاف بوليطي، في الرابط الإلكتروني التالي:
https://tinyurl.com/y9hqa4r2

- نكديمون، شلومو. "إن كان هناك حاجة إلى إطلاق النار عليهم فسنطلقها". "هآرتس" (٢٠١١/١١/١١)، في الرابط الإلكتروني التالي:
http://www.haaretz.co.il/magazine/1.1563189
- يعقوبسون، أليكس وأمنون روبنشطاين. "إسرائيل وعائلة الأمم". تل أبيب: دار شوكن، ٢٠٠٣.

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

بلادنا فلسطين
(الجزء الثاني)
الديار الغزية

مصطفى مراد الدباغ

تقديم: وليد الخالدي

٥٧٨ صفحة ٢٥ دولاراً